telegram: @mbooks90

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

في ذكرى ستيفن دول ماثيوز

6 يونية 1927 - 14 أغسطس 1950

telegram: @mbooks90

هذا الكتاب إلى صديقي

چين چيويل

الصيف الماضي - الصيف الذي بلغت فيه الثانية عشرة - كان الصيف الذي جاء فيه آدم. ومنذ ذلك اليوم وإلى الأبد سوف أفكر في الأحداث قبل مجيء آدم وما بعد مجيئه. وأخيرًا، وفي هذه الليلة وبعد بضعة أشهر بعد آدم سأتمكن أخيرًا من أن أقضي المساء بمفردي.

فأنا أجلس الآن في البهو أتفحص مجموعة التسجيلات المصطفة في الصندوق المعدني والخاصة بالعائلة؛ كل شريط تسجيل موضوع بعناية وعليه ملصق خاص. يوم الزفاف - 1945. زيارة مع هايدن - 1947. هاتي - 1951. عيد الاستقلال - 1958 أخذت أبحث عن الأفلام الخاصة بهذا الصيف. لقد جمعها أبي في شريط واحد أسماه يونية - يولية 1960. أمسكت بالشريط وأخذت أقلب فيه المرة تلو الأخرى.

إنها ليلة هادئة، وأشعر أنني بمفردي في المنزل على الرغم من أن هناك غرفتين مشغولتين في الطابق العلوي. فأنا أسمع دقات الساعة في حجرة

السيد بني وكذلك وقْع الخطوات وهي تتهادى بخفة عبر البهو باتجاه الحمّام؛ كانت تلك هي خطوات الآنسة هاجرتي، أنا واثقة من ذلك. فأنا أعرف الروتين الخاص بالنزلاء، والآن حانت الساعة التي تدعوها الآنسة هاجرتي، والتي تحظت الثمانين من عمرها، نظام التجميل المسائي. ومن الخارج تنعكس في الغرفة المظلمة أضواء كشافات إحدى السيارات التي تسير في طريق جرانت. إن الطقس دافئ بالنسبة لشهر أكتوبر؛ ولذا فقد فتحت النافذة على مصراعيها، ويمكنني أن أشتم رائحة أوراق الأشجار وأن أسمع صوت كلب يعوي.

كان أبي وأمي قد ذهبا مع جدي وجدتي إلى عشاء كبير في نادي «برزنت داي»؛ كان ذلك هو أول لقاء اجتماعي حقيقي بعد الحفل الذي أقامه جدي وجدتي في تلك الليلة الفظيعة من شهر يولية. في تلك الليلة الأولى لي بمفردي وثق بي أبي وسمح لي باستخدام آلة العرض والشرائط بمفردي. فأعددت بعض الفشار وها أنا أتناوله في غرفة الجلوس حيث من غير المفترض فيّ أنا تناول الطعام بعد حادثة البيض المشوي المؤسفة عام 1958. في الواقع، كل ما يمكن الآن رؤيته هو آثار الخواف الباهتة للبقعة، إلى جانب أنني الآن في الثانية عشرة ولست في العاشرة من عمري. أعتقد أن حظر الطعام في غرفة الجلوس يمكن رفعه الآن؛ حيث إن أبي يثق بي ويشعر أني مسئولة بالقدر الكافي أن أدير جهاز العرض الخاص به.

لقد قال لي إنني أستطيع أن أفعل ما يحلو لي الليلة، وأنا بالفعل أقوم بذلك بلا أي أخطاء أو أي حوادث، وضعت الشاشة في أحد أركان الغرفة ثم أخرجت جهاز العرض من الخزانة ووضعته على المنضدة ووضعت طرف

بكرة الشريط السينمائي في مكانها الصحيح وأدرت الجهاز وأطفأت الأنوار ثم وضعت وعاء الفشار على حامل الأواني ووضعته على حجري وجلست لأشاهد الفيلم المعنون هاتي - 1951. إن هذا الشريط أحد الشرائط المفضلة لديَّ؛ لأنه يتضمن تسجيلًا لحفلة عيد ميلادي الثالث وأستطيع أن أشاهد فيه سيمون قطَّنا القديم وهو يقفز على منضدة الطعام ليحط على طبق الآيس كريم. ويمكنني أيضًا أن أدير الشريط عكسيًّا؛ لأرى سيمون وهو يطير على الأرض وقطع الآيس كريم تتراجع إلى الوعاء، جعلت سيمون يقفز من وإلى الوعاء عدة مرات قبل أن أشاهد بقية الفيلم.

لكنني الآن أمسك علبة شريط هذا الصيف. تأملته لبعض الوقت قبل أن أخرجه من العلبة وأضعه في جهاز العرض بإحكام: وضعت طرف الشريط وعقدته على شكل أنشوطة ثم لففت كل ذلك على ضوء مصباح صغير وعندما انتهيت كانت يداي ترتعشان. أخذت نفسًا عميقًا ثم أدرت الجهاز وأطفأت الأنوار وجلست إلى الوراء.

حسنًا! ها هي أولا آنجيل ڤالنتين، وهي تقف على شرفة منزلنا الأمامية وتلوح للكاميرا، كان لدينا مجموعة كبيرة من اللقطات لأناس يقفون على الشرفة الأمامية وهم يلوحون بأيديهم للكاميرا؛ ذلك لأن أبي كان عندما يخرج الكاميرا ويبدأ في توجيهها على من حوله كان لا بد لأحدهم أن يقول: «يا إلهي! كاميرا السينما مرة أخرى، لا أعرف كيف أتصرف» فكان أبي يرد عليهم بقوله: «حسنًا، ما رأيك أن تقف على الشرفة وتلوح؟». وهكذا أصبح هناك آنجيل وهي تلوح، ثم بعدها مباشرة تأتي الآنسة هاجرتي والسيد بني من المنزل ويقفان على جانبي آنجيل ويلوحان بيديهما هما أيضًا.

ثم يأتي جدي وجدتي في يوم آخر وفي ضوء أكثر خفوتًا وهما يلوحان من الشرفة الأمامية، كانا يرتديان ملابس السهرة: جدي كان يرتدي بزة رسمية وحذاء لامعًا، في حين كانت جدتي تلبس رداء سهرة طويلاً يصل إلى كاحليها وتلف شالًا كبيرًا حول كتفيها، لا أتذكر إلى أين كانا متجهين ولكنهما كانا يبدوان سعيدين وهما يبتسمان وقد تشابكت أيديهما والجد يربت على يد الجدة.

وفجأة، ظهر آدم! لم يبتسم أو يلوح للكاميرا فلم يكن آدم يمتثل لأي توجيهات أثناء التصوير. كان يقف في الفناء وهو يقذف كرة البيسبول لأسفل وأعلى لأسفل وأعلى، ثم يتركها لتسقط عند قدميه عندما يفتح الباب الأمامي لتخرج منه آنجيل وهي تلوح لأبي، والتي كانت تبدو نشيطة ومنتعشة في رداء صيفي بلا أكمام، جلست في الشرفة الأمامية وفتحت كتابًا لتقرأ فيه. قمت باسترجاع الشريط، لا للتسلية بل لأرى آدم مرة أخرى.

وجلست مستقيمة عندما أتى مشهد الكرنڤال. أنا وأمي كنا نركب العجلة الكبيرة وكانت تدور بنا مرة تلو الأخرى، كان يبدو علينا الحرج؛ لأن أبي استمر في التصوير. أخذنا نبتسم ابتسامة تلو الأخرى ثم أتبعناها بمزيد من الابتسامات الواسعة حتى تجمدت الابتسامة على وجهينا، ثم أتى بعد ذلك دور الرحلة الخلوية في الرابع من يولية؛ كان آدم يأكل بطريقة ميكانيكية رافضًا النظر إلى الكاميرا، أما الآخرون فكانوا يستخدمون الإشارات التي تنم عن التلذذ ويربتون على بطونهم وهم يضحكون لأبي.. أما أنا فتظاهرت بالتجشؤ أمام آدم؛ وهو ما جعله يضحك.

وأخيرًا، جاء دور حفلة عيد ميلادي التي أقامها لي أمي وأبي.. وهذه غير الحفلة التي أقامها لي آدم؛ تلك كانت حفلة خاصة وكانت حدثًا فريدًا يحدث مرة واحدة في العمر.. أما هذه الحفلة فكانت تقام كل عام. كنت أنظر إلى الكعكة والهدايا، أما سيمون فلم يظهر في الفيلم، كان قد مات عندما كنت في الخامسة من عمري ولم نأت بحيوان أليف آخر من بعده، الكل كان يضحك: أمي، جدي، جدتي، كوكي، الآنسة هاجرتي، السيد بني، آنجيل وأنا. الكل ما عدا آدم الذي كان يركز على زينة الكعكة، لم نكن نعلم في ذلك الحين ولكن تلك كانت بداية حادثة السكر الوردي التي غضب فيها آدم بشدة وأبي على وشك التوقف عن التصوير.

أما الآن فقد انتهى الشريط وسمعت صوته وهو يصفق بعد أن بلغ نهايته. قمت بإطفاء جهاز العرض ثم جلست في الظلام لوهلة وأنا أفكر في تلك الصور الجميلة. الابتسامات والتلويحات. كنت على وشك البكاء. كانت أفلام أبي جميلة لكنها لم تكن تروي حقيقة ما حدث في ذلك الصيف. الأحداث التي لم تغطها الأفلام أهم بكثير من تلك التي تحتويها. استطاع أبي أن يسجل الأوقات الجميلة؛ فقط الأوقات الجميلة.

الأجزاء التي لم يسجلها هي التي غيرت حياتي.

الفصل الأول

كانت مدينة ميلرتون في الأوقات المبكرة من الصباح في أيام الصيف تغط في النوم في هواء ثقيل. لم تتعد الساعة السادسة والنصف صباحًا، ومع ذلك أستطيع أن أحس بالرطوبة وهي تتخلل ستائر النوافذ وتغمرني كالغطاء، كان كل ما ألمسه رطبًا.

كنت واثقة أنني الوحيدة التي استيقظت في المنزل. رقدت في الفراش لبرهة أستمع إلى أصوات العصافير. لم أكن أنوي أن أقضي الصباح كله في الفراش حتى لو كان ذلك أول يوم في الإجازة الصيفية. كان بعض رفاق المدرسة ينتظرون طوال العام الإجازة الصيفية حتى يستطيعوا أن يستيقظوا في ساعة متأخرة من الصباح، أما أنا فلديَّ الكثير لأنجزه. قمت من الفراش وارتديت سروالًا قصيرًا وصندلًا، وبلوزة بلا أكمام حاكتها لي الأنسة هاجرتي على ماكينة الخياطة ماركة سنجر الخاصة بها. كانت البلوزة بيضاء وعليها حرف X كبير مصنوع من شريط أزرق.

مشيت على أطراف أصابعي في الردهة.. كانت حجرتي في جانب والدرج في الجانب المقابل له، أما في المنتصف فكانت هناك غرفة والدي ثم غرفة السيد بني وغرفة الآنسة هاجرتي وغرفة آنجيل فالنتين ثم غرفة ضيوف صغيرة ودورة مياه ملحقة بها غرفة للتجميل عبارة عن ردهة طويلة. لابد وأن الساعة الآن 6:45 وذلك لأنني عندما اقتربت من غرفة السيد بني كانت الحجرة ترعد بأصوات الدق، الرنين، الصليل والتغريد؛ فقد كان السيد بني يقوم بإدارة متجر لتصليح الساعات في غرفته. لقد اعتزل الآن ولكن غرفته كانت ملأى بالساعات وكلها كانت تعمل بدقة؛ فعند الدقيقة الخامسة عشرة ثم عند منتصف الساعة وعند الدقيقة الخامسة والأربعين كانت الساعات تدور وتدق وتزقزق. كانت تلك الأصوات قد تعودنا عليها حتى إننا كنا ننام عليها في الليل. فهناك ساعات على شكل بيوت خشبية صغيرة تظهر منها ديوك صغيرة كل 60 دقيقة. وساعة أخرى ترن مثل جرس السفينة وفي ساعات أخرى كانت الحيوانات ترقص والمتزحلقون ينزلقون، كما كان يملك أيضًا ساعة من ساعات الحائط الكبيرة المسماة بساعة الجد. وفي ظني أنه كان يجب عليه أن يقتنني إحداها بما أنه قد بلغ العمر الذي ينبغي له لو كان قد أنجب أولادًا أن يكون جدًّا فيه. وأخيرًا كانت هناك ساعة يتواكب على واجهتها صورة الشمس والقمر. ورغم أن السيد بني لم يكن محبًّا للأطفال (ليس الآن، ولم يكن كذلك يومًا) كان يسمح لي بملء الساعة بواسطة الذراع الصغيرة مرة كل أسبوع وكانت عيناي تركزان على الموازين داخلها حتى تصل إلى الموضع الصحيح.. وكان السيد بني يقول إنني إنسانة تتحمل المسئولية.

سرت على أطراف أصابعي وأنا أهبط الدرج في اتجاه المطبخ. كنت لا أزال الوحيدة المستيقظة في المنزل وكنت سعيدة بذلك. فإذا كنت سأعد الإفطار للجميع فمن الأفضل أن أكون بمفردي في المطبخ. أعددت بعض الأشياء التي سوف تحتاجها كوكي عندما تأتي؛ كانت كوكي طاهية المنزل وهي تساعد أمي في تجهيز الوجبات للنزلاء.. كان اسمها الحقيقي راي بنيت. أعتقد أنه اسم جميل يصلح اسمًا لبطلة في رواية ولكن الجميع كانوا ينادونها كوكي. أحيانًا أتساءل إذا كانت تفضل أن أناديها راي أو السيدة بنيت ولكن ما من أحد في أسرتنا يطرح الكثير من الأسئلة.

في الصيف أكون مسئولة عن إفطار الآنسة هاجرتي وكانت هي الوحيدة من النزلاء التي تتناول الإفطار في غرفتها؛ وذلك لأنها في المقام الأول طاعنة في السن، وأيضًا لأنني طيبة القلب فيجب ألا يراها أحد قبل أن تضع مساحيق التجميل الخاصة بالوجه وهي تحتاج أن تستعيد طاقتها لتفعل ذلك؛ ولذلك فكل صباح كنت أعد لها صينية الإفطار الخاصة بها والتي لا تتغير - بيضة غير تامة النضج في فنجان صغير وطبق من التوست الذي أزيلت أطرافه وإبريق من الشاي - وبما أن الآنسة هاجرتي مغرمة بالجمال فقد كنت أضع لها زهرة بنفسج في زهرية صغيرة على أحد أطراف الصينية.

الساعة الآن السابعة والربع، كان هناك صوت مفتاح في الباب الأمامي ثم فجأة دبت الحياة في المطبخ. دخلت كوكي في صخب في الوقت الذي نزل فيه أبي وأمي من أعلى. كان والداي لايزالان يرتديان

ملابس النوم ورائحة النوم لا تزال عالقة بهما، وأبي تفوح منه رائحة غسول الفم.

قلت: «صباح الخير».

صاحت كوكي في مرحها المعهود: «صباح الخير».

تمتم أبي وأمي: «صباح الخير».

تهاوت أمي على كرسي المطبخ وهي تقول: «هاتي! هل أعددت إفطار الآنسة هاجرتي؟».

نعم فعلت. وأنا ممسكة بالصينية الآن أمامي.

قالت كوكي وهي تفتح أربع خزانات وتأخذ كرتونة البيض من الثلاجة وتشعل النار تحت المقلاة: «هي نشيطة مثلي تمامًا».

سررت بتعليق كوكي ولكن لم يكن لديَّ شيء أقوله، فلم أتكلم.

نظرت أمي إليَّ وقالت: «يمكن أن تكون أقل نشاطًا وأكثر ودًّا مع من حولها».

خرجت بخطوات متثاقلة من المطبخ وقد فسدت اللحظة، كنت أود أن أصعد الدرج بخطى غاضبة لكنني كنت لا أزال أحمل صينية الإفطار، ولم أكن أريد أن يُسكب الشاي.

طرقت باب غرفة الآنسة هاجرتي.

فصاحت قائلة: «عزيزتي!». طوال عهدي بالآنسة هاجرتي - وذلك كان طوال حياتي لأنها عاشت في منزلنا قبل مولدي - لم تكن تناديني إلا بـ«يا عزيزتي». عندما كنت صغيرة كنت أظن أنها ربما لا تتذكر اسمي، لكنني لاحظت أنها لا تنادي أحدًا غيري بهذا الاسم؛ ولذلك فأنا سعيدة أن ذلك هو الاسم الخاص الذي لا تنادي أحدًا غيري به.

صحت: «صباح الخير آنسة هاجرتي، هل أستطيع الدخول؟».

ردت الآنسة هاجرتي بالفرنسية وبنبرة فيها فخامة: «تفضلي».

أمسكت الصينية بيد وفتحت الباب بالأخرى. كنت أنا تقريباً الوحيدة المسموح لها بأن ترى الآنسة هاجرتي في الصباح الباكر قبل أن تضع المساحيق على وجهها. وكانت في الحقيقة تمثل منظراً يستحق الرؤية؛ حيث كانت تجلس في الفراش الذي يبدو كجبل معطر. كان جزءاً من ذلك الجبل، المفروشات الخاصة بفراش الآنسة هاجرتي - الملاءات والأغطية المزركشة والوسائد ذات الأطراف المصنوعة من الدانتيلا والأغطية الصوف الصغيرة التي كانت تغزلها الآنسة هاجرتي وصديقاتها. كانت تنام تحت هذا التل من المفروشات سواء كانت حرارة الجو تسعين فهرنهايت [1] أو عشرين درجة وكان الجزء الآخر من الجبل يتكون من الآنسة هاجرتي نفسها. تذكرني الآنسة هاجرتي بمفروشات سريرها - فهي أيضًا تبدو طرية وذات رائحة عطرة وجسدها الممتلئ يكسوه القماش ذو الورد.

وضعت الصينية على حِجرها؛ فهي تفضل أن تتناول إفطارها في الفراش، ثم سحبت الستائر وجلست على المقعد وأنا أتأمل المكان من حولي. كان هناك بالكاد بوصة من الفراغ في حجرتها. كانت الأقمشة متراكمة على طاولة الخياطة وقد تدلت من حقائب الخياطة المبطنة أوراق من الدانتيلا والشرائط والأزرار والإبر والكبسولات.. أما عن المساحات

(1) فهرنهايت: عندما تكون درجة الحرارة 212 ف تكون درجة الحرارة المئوية 100°، والكلمة نسبة إلى العالم الألماني دانيال غابرييل فهرنهايت 1724.

الباقية في الغرفة فكانت كلها مغطاة بزجاجات العطر والطيور الخزفية والصناديق الخشبية والزهريات الزجاجية الصغيرة.

وعلى طاولة الزينة، كانت تضع اثني عشر بروازًا فيها صور لي؛ أولاها كانت عند مولدي، ثم صورة في كل عيد ميلاد لي حتى الآن. كنت أستطيع أن أرى نفسي أتحول من الرضيعة إلى الطفلة المكتنزة، ثم من الصبية النحيلة إلى الفتاة النحيلة الأكثر طولًا. وكنت أستطيع أن أرى كيف تغير لون شعري إلى لون أشقر أقرب إلى الأبيض وكيف تحولت تجعيدات الشعر إلى ضفائر. أظن أن تلك الصور شرف كبير لي. تقول الآنسة هاجرتي إنها تعتبرني حفيدتها وأنا أتمنى لو كنت كذلك ولكن كانت تلك أمنية خاصة بما أن لي جدتين. لكن جدتي تعيش في كنتاكي ولا أراها كثيرًا أما عن «نانا».. حسنًا فـ«نانا» هي جدتي.

قلت وهي تبدأ في دهن التوست بالبيضة التي هرستها في الفنجان: «آنسة هاجرتي، ما الخطب في أن يكون المرء خجولاً؟».

«لا شيء على الإطلاق يا عزيزتي. لماذا تسألين؟».

لم أستطع النظر مباشرة إلى الآنسة هاجرتي «لا أعلم، حسنًا، لا تقلقي من عدم تمكنك من التعرف إلى فتى، ثقي فيَّ! حتى البنات اللاتي يخجلن يجدن من يخطب ودَّهن».

كان ذلك آخر شيء يمكن أن يخطر ببالي، ولكنها فكرة مسلية، خاصة أن الآنسة هاجرتي لم تتزوج قط، ومع ذلك فهي تبدو خبيرة بطبيعة الأزواج والخاطبين، ناهيك عن تصفيف الشعر والتجميل. كانت دائمًا تقول لي أشياء مثل: «يا عزيزتي، تستطيعين أن تقللي من بروز عظام الوجنتين

بإضافة قليل من أحمر الخدود»، أو «انظري يا عزيزتي كيف سيبعث هذا الكحل الحياة في عينيك الزرقاوين»، لم يكن مسموحًا لي أن أستخدم مستحضرات التجميل، لكنني احتفظت بتلك النصائح حتى يُسمحَ لي باستخدامها حين أكبر.

وبعد ذلك عندما تركت غرفة الآنسة هاجرتي ومعي صينية الإفطار، كنت أحاول أن أتخيل نفسي مع خطيب. كان من الممكن أن أكون مثل زيلدا جيلروي في فيلم دوبي جيليس، أو أن أكون مثل تاليا منينجير! لأنها الفتاة التي كان دوبي دائمًا ما يلاحقها. ولن أصده مثل تاليا فسأكون سعيدة أن أجلس معه في محل العصير. كان يكبرني سنًّا، لكنه كان ظريفًا. سوف أرتدي (جونلات) واسعة وقمصانًا بأكمام منفوشة ومعها حزام جلدي كبير وأعقص شعري برباط رأس وردي اللون، وفي محل العصير سوف أطلب أنا ودوبي كأسًا كبيرة من اللبن المخفوق وماصتين حتى نستطيع أن نشرب معًا من نفس الكأس، وكل من يرانا سوف يعرف أننا مع بعضنا البعض، كنت آمل فقط أن يقوم دوبي بإدارة دفة الحديث وأن يتحدث عنَّا معًا؛ حتى لا يُعدَّ حيائي أمرًا ذا أهمية.

في أثناء هبوطي إلى البهو بصينية الآنسة هاجرتي خرج السيد بني من غرفته مرتديًا سرواله وقميصه المجعدين، وكان عابسًا كعادته في الصباح. قلت له: «أهلاً يا سيد بني!» وواصلت المسير؛ لأنه لم يكن يستطيع أن يتكلم إلا بعد تناول قهوته الصباحية.

وضعت الصينية في المطبخ، وجلست مع أمي وأبي اللذين كانا قد ارتديا ملابسهما وبدا عليهما الانتعاش - لتناول الإفطار في حجرة الطعام.

كنت أعلم أن السيد بني سوف ينضم إلينا فيما بعد، ولكن أنجيل فالنتين لن تأتي؛ لأنها تحافظ على قوامها.. بالإضافة إلى ذلك فإن لها كثيرًا من الطموحات الخاصة بعملها في البنك وتقول إنها تترك انطباعًا جيدًا إذا جاءت قبل رئيسها في الصباح؛ ولذلك فإن أنجيل تمر مسرعة كالنسيم على حجرة الطعام وهي ترتدي ملابس كالتي ترتديها فتيات «دوبي جيليس» ثم تبتلع كوبًا من القهوة وتعدو نحو الباب وهي تقول: «تمتعي بأول يوم في العطلة يا هاتي».

أعتقد أن أنجيل رائعة للغاية، وكنت أتمنَّى أن أكون أختها الصغيرة حتى وإن لم تتعدَّ معرفتي بها أكثر من شهر. بعد الإفطار ذهب الجميع في جلبة؛ السيد بني الذي هو في عجلة من أمره دائمًا قال إنه يجب أن يذهب إلى البلدة حالاً؛ لأن وراءه الكثير من المهام لينجزها. قررت الآنسة هاجرتي أن تجلس في الشرفة الأمامية لتشتغل التريكو، أما كوكي فانشغلت بإعداد الغداء، ثم ظهرت توبي دي أنجلي لتساعد أمي في تنظيف الغرف، وذهب أبي لعمله في الاستوديو الخاص به في الدور الثالث.

أبي فنان.. كان قد طُلِب منه أن يرسم صورتين لأحد أصدقاء جدي وجدتي. وأنا أنوي أن أقف وراءه وأراقبه وهو يرسم، خاصة أنه أكد لي أن ذلك لا يضايقه. كنت أراقب يده اليمنى الممسكة بفرشاة الرسم. كانت تلك اليد التي حاول أبي أن يؤمن عليها - شيئًا رائعًا حقًّا، وكانت ملطخة بالحبر والألوان، والأظافر محاطة بالشحم الذي لا يمكن إزالته إلا بزيت التربنتين.. وكانت تلك اليد تمرر الفرشاة على اللوحة فتحولها من لا شيء إلى صورة وجه أو طريق ريفي أو طبق فاكهة

بالظلال والأضواء والعمق المطلوب؛ كنت أشعر كما لو كنت أراقب ساحرًا.

أحيانًا كان أبي يعطيني لوحة صغيرة وكنا نرسم معًا عليها.. كنت أفضل الرسم التجريدي إلا فيما يختص بالخيول.

كان أبي غالبًا ما ينغمس في شيء مسلٍّ، لو لم يكن يرسم فهو يعمل في الحديقة أو يقوم بإصلاح شيء في المنزل. أحيانًا كان يصمم كروت معايدة (حتى ذلك النوع الذي تظهر منه صور أخرى صغيرة) وأحيانًا أخرى كان يلتقط الصور الفوتوغرافية ويحمضها بنفسه أو يتنقل في المكان بكاميرا السينما؛ ولذلك كنت دائمًا أشعر أن الغضب يتملكني عندما تقول جدتي لأمي إنها تزوجت دون مستواها . كان أبي يستطيع أن يفعل كل شيء ولكنه في رأي جدتي كان سبَبَ خزي للعائلة بتحويله البيت إلى بنسيون، على الجانب الآخر يقول أبي إنه محظوظ؛ لأنه استطاع أن ينفق على عائلته وعمله من تحويل البيت إلى بنسيون.

صعدت الدرج مسرعة إلى الدور الثالث، وكنت على وشك أن أدخل مسرعة إلى استوديو أبي عندما توقفت فجأة وكان يجب أن أمسك بالباب؛ حتى لا أقع على الأرض، فلقد كنت أوشك أن أدهس مشروع أبي.

لم يكن يرسم إذن.

قلت له: «أوه! ما هذا؟هل هو فيلم جديد؟» حيث أمضى أبي عدة أسابيع في العام الماضي وهو يصنع فيلم رسوم متحركة، أسماه *«ملكة لمدة يوم»*. كانت قصته تدور حول ملكة شريرة ذات شعر مجعد تطارد زوجها الملك في كل مكان بالقصر وهي تحاول قتله. ينتصر عليها الملك ويطيح

برأسها. وهنا تطير الملكة إلى السماء بأجنحة كأجنحة الملائكة، ولكنها تُطرد وتبعث إلى أسفل لتلتهمها نيران حمراء وبرتقالية اللون مصنوعة من الكرتون. كانت مدة الفيلم ثلاث دقائق ونصفًا. لقد شاهدته أكثر من مرة، كنت تقريبًا جمهوره الوحيد، نظرت إلى الأشياء المنتشرة على الأرض الآن؛ فلم أَرَ أي ملكات أو لهب أو أجنحة ملائكة؛ كل ما رأيته كان مئات من قطع الورق بمختلف الأحجام والأشكال والألوان. وفي أثناء مراقبتي له، قام أبي بوضع دائرة ورقية زرقاء صغيرة إلى جانب دائرة مثلها، إلا أنها أكبر حجمًا، ثم قام بتصويرها مستخدمًا كاميرته ذات الـ 16 ملليمترًا.

«اسمه المُجرد». قال أبي: «الأشكال سوف تتحرك حول الشاشة وسوف يُعاد تشكيلها في منظومات جديدة.. الألوان سوف تتغير..» قَرَّبَ الدائرة لمسافة أكبر إلى الدائرة الأخرى ثم أضاف نقطة زرقاء صغيرة في الصورة.

فكرت في جدتي؛ فلقد كانت جدتي تتمنى لو أن لأبي وظيفة تقليدية مثل ما لدى جدي. كانت تتمنى لو كان محاميًا أو رجل أعمال، أي وظيفة مرموقة. لكن فنان؟! بل أسوأ من ذلك، فهو فنان يصنع أحيانًا أشياء لن تباع.

قال أبي وهو يحرك الأشكال كما لو كان يستطيع قراءة أفكاري: «بالمناسبة، جدتك سوف تأتي لتناول الغداء معنا اليوم».

رددت وراءه: «جدتي؟» .

«نعم».

«ستتناول الغداء؟».

«نعم».

«ستأتي هنا لتناول الغداء؟».

«نعم».

«على الغداء، اليوم؟».

نظر أبي لأعلى وابتسم لي: «سوف نتعايش مع ذلك يا هاتي».

لم أكن واثقة من ذلك. شعرت فجأة أنني أود الهروب من المنزل، نظرت إلى ساعة يدي؛ العاشرة؛ وقت ملائم لرحلتي اليومية إلى البلدة.. علاوة على ذلك، في أثناء الطريق أستطيع أن أتوقف عند منزل بتسي لأودعها. فلو استغرقت وقتًا طويلاً لأنجز هاتين المهمتين فربما لا ألحق بالغداء.

telegram: @mbooks90

قلت لأبي: «سوف أذهب إلى بيتي.. أراك لاحقًا».

لا أعرف هل استطاع أبي أن يسمعني؛ فقد كان منشغلًا بهذا الجزء من اللوحة.

الفصل الثاني

كان هناك ثلاثة قوانين في البنسيون.. هذا إذا أسقطنا منع الأكل في غرفة الجلوس: 1- كل نزيل عليه أن يدفع الإيجار في اليوم الأول من الشهر حتى لو وافق ذلك يوم الأحد. 2- غير مسموح باقتناء الحيوانات الأليفة (طُبِّقَت تلك القاعدة منذ اليوم التالي لنفوق سيمون). 3- الزوار من الجنس الآخر يمكن استقبالهم في غرفة الجلوس أو في الشرفة الأمامية فقط. تقول أمي إن تلك القواعد تنطبق عليَّ بما فيها القاعدة الأولى في حالة ما إذا مكثت في المنزل بعد سن الثامنة عشرة. لست متأكدة إذا كانت تمزح في هذا الشأن أم لا.

وحيث إنه لم تكن هناك قاعدة خاصة بوجوب إعلام أبي وأمي بالأماكن التي أذهب إليها قبل الخروج؛ فقد كنت أخرج كما أشاء - لكن ليس بالكثرة التي تجعلهما يقرران وضع قواعد لخروجي. في الواقع، ميلرتون مدينة صغيرة جدًّا، والجميع يعرفون بعضهم بعضًا، والكل يعشق النميمة.

في أغلب الأحيان كلما رجعت من إحدى رحلاتي إلى المدينة كانت أمي تعلم أين كنت من قبل أن أعود إلى المنزل؛ فالسيدة إيفانز التي تقطن في أول الشارع سوف تكلم أمي لتقول: «لقد رأيت هاتي وهي تمر من أمام البيت»، ثم يجيء دور السيد شوجارد مدير مطعم «ميت واجن»[1] ليتكلم ويقول: «هاتي في طريقها إلى المكتبة». وبعد ذلك بساعة تقريبًا سوف تتكلم السيدة موورا أمينة المكتبة لتقول: «دوروثي! هاتي جاءت اليوم واستعارت عشرة كتب أخرى»؛ ولهذا لم يكن هناك داع لأن أخبرهما بالمكان الذي سوف أذهب إليه.

أسرعت الخطى وأنا أمرُّ ببهو الدور الثاني حتى لا ألتقي أمي وتوبي اللتين انهمكتا في إزالة الغبار بالمكانس الكهربائية، وكان من المحتمل أن يجعلاني أنظف الدور معهما في حالة رؤيتهما لي. كان على توبي أن تأتي ثلاث مرات كل أسبوع؛ حتى نستطيع أن نحتفظ بالنُّزل نظيفًا.

منزلنا يُعد لغزًا؛ كانت تلك إحدى المفردات التي تعلمتها في الصف السادس. على الرغم من كونه ثالث أكبر منزل في ميلرتون، فلم يكن أحد ينظر إليه على أنه قصر. في نفس الوقت كان الجميع يعتبرون بيت جدتي وجدي - وقد كان في المرتبة الثانية - قصرًا. عندما اشترى أبي وأمي المنزل في بدء زواجهما كان في حالة يرثى لها؛ لقد شاهدت حالته في فيلم التقطه أبي عام 1946 . كان شأنه شأن المنازل التي تظهر في حكايات الهالويين المرعبة؛ فكان الطلاء فيه يكاد يتلاشى وكان الشيش معلقًا من الجوانب،

---

(1) عربة اللحم : Meat Wagon.

ودرجات بأكملها مفقودة من السلم الداخلي، والنوافذ مكسرة. كان من المقرر أن يهدم المنزل عندما اشتراه أبي وأمي بالنقود التي أعطاها لهما جدي وجدتي من أجل زواجهما. وكما كان أبي دائمًا يقول وهو مزهو إنه اشتراه بثمن بخس، قام أبي وأمي وأصدقاؤهما بإصلاحه حتى يحولوه إلى بنسيون وكانت الآنسة هاجرتي أول النزلاء الذين قطنوا فيه قبل مولدي.

الآن هو بيت جميل، لكن يصعب مقارنته بفخامة منزل جدي وجدتي. منزلنا، كما تقول جدتي، مشروع تجاري أما منزلهم فهو بيت. في منزلنا، أمي تساعد كوكي في الطهو وتوبي في التنظيف ويرعى أبي الحديقة، وعندما نريد أن نذهب إلى مكان ما كان أبي يقود السيارة ماركة فورد القديمة بنفسه، أما عند جدي وجدتي فإن الطاهية تطهو الطعام والخدم ينظفون البيت، والبستاني يعتني بالحديقة والسائق يقود السيارة. ولم يكن يقود سيارة فورد قديمة.. تلك التي عرض جدي وجدتي - في سياق الكلام - تغيير سيارة جديدة بها. لكن أبي اتخذ موقفًا صارمًا وقال لأمي على انفراد إننا لسنا حالة من حالات الصدقة.

كان منزلنا يبدو مثل شيء واحد، لكن شيء آخر تمامًا.

كنت بعد ذلك بخمس ثوان أسفل الدرج، وانطلقت مندفعة من الباب الأمامي للمنزل وأنا أودع الآنسة هاجرتي التي كنت أستطيع أن أسمع رنين إبر التريكو الخاصة بها وهي تغزل شالاً من الصوف تتجمع خيوطه في حجرها. عدوت عبر الحديقة إلى الرصيف ثم إلى طريق جرانت على بُعد ناصيتين من منزل بتسي، وكما توقعت فإن سيارة عائلة ماكجرودر الفورد الشبيهة بسيارتنا (إلا أنها من طراز جديد) كانت تنتظر في المكان المخصص للسيارات مفتحة الأبواب، وعلى الرغم من أن السيارة كانت معبأة حتى

آخرها فقد كان أفراد عائلة ماكجرودر يأتون الواحد تلو الآخر وهم يحملون أشياء أخرى لإضافتها إلى الحمولة. كان ذلك يذكرني بحلقة من حلقات «أنا أحب لوسي» التي يقوم فيها فريد متنز بتعبئة سيارة عائلة ريكاردو للذهاب إلى كاليفورنيا. كان يقوم برَصّ الحقائب والصناديق وربطها معًا في كل مكان ممكن وغير آمن مثل سقف أو مقدمة السيارة. كانت سيارة ماكجرودر معبأة من الداخل إلى السقف، ولم يبق إلا نفق صغير ليستطيع السيد ماكجرودر أن يرى منه عندما ينظر في المرآة الداخلية للسيارة . أما عن السيدة ماكجرودر وراندي - الأخ الأكبر لبتسي - فقد كانا مشغولين بربط أشياء على شبكة السيارة وكانت لا تزال هناك أشياء أخرى على أرض الحديقة تنتظر دورها لتُرص هي أيضًا.

كل عام كان نفس الشيء يحدث. في اليوم التالي من انتهاء العام الدراسي كانت عائلة بتسي ترحل إلى منزلها في ماين لتمكث شهرين هناك. كنت دائمًا أعتقد أنهم لن يتمكنوا من تعبئة السيارة بكل تلك الأشياء ولكنهم على العكس كانوا يتمكنون من ذلك ويرحلون، ولا أرى بتسي بعد ذلك إلا قبل بدء المدرسة بفترة قصيرة. وبتسي ليست صديقتي المقربة فحسب، بل صديقتي الوحيدة، ومع ذلك لم نقضِ قطُّ الإجازة الصيفية معًا.

كانت بتسي تكافح وهي تحاول الخروج من الباب الأمامي حاملةً حقيبتين كبيرتين، وعندما رأتني تركتهما لتلوّح لي.

قالت بتسي: «أهلاً، لم أكن متأكدة أنك ستأتين».

حسنًا.. كنت دائمًا آتي لأودع بتسي كل عام منذ كنا في الخامسة من عمرنا.

قلت وأنا أخرج من جيبي ثلاث قطع من اللبان ماركة «بازوكا»: «لقد جلبت لك شيئًا ولتحتفظي بالرسومات». قالت بتسي: «وسوف أبعث لهم لأطالب بالهدية المجانية» وسكتت للحظة، ثم أضافت: «أتمنى لو كنت تستطيعين المجيء معنا».

أطرقت وأنا أنظر إلى الأرض وقلت: «أعرف. أنا آسفة».. في الأعوام الثلاثة الماضية كانت عائلة ماكجرودر تعرض عليَّ أن تستضيفني لقضاء الصيف معها وكل عام كنت أشكرها وأرفض، لم تستطع أمي أن تستوعب هذا. رحلة مجانية إلى ماين شهرين في السباحة وصيد الإستاكوزا، والتنزه وسط الأشجار.. كانت تبدو رحلة رائعة، ولكنني لم أكن أرغب في الذهاب، ورفضت الذهاب إلى معسكر ڤيرونت وهو نفس المعسكر الذي كانت تذهب إليه أمي، وذلك عندما عرضت عليَّ جدتي - وكان ذلك منذ أربع سنوات مضت - أن تتكفل بالمصاريف، كل تلك الرحلات كانت تبدو ممتعة، ولكنني كنت أريد أن أقضي الصيف في ميلرتون أصطحب الأنسة هاجرتي في زيارتها وأرسم مع أبي، أسير إلى البلدة وأقرأ أكوامًا من الكتب. ثم ماذا إذا مرضت في أثناء الرحلة؟ فما تركتُ المنزل بمفردي قطُّ، ولا أنوي أن أبدأ الآن. أمي تقول: «وماذا ستفعلين عندما يحين وقت دخولك الجامعة؟». فضلت ألا أفكر في ذلك الآن؛ فذلك في المستقبل البعيد، أما الآن فأنا أريد حياتي آمنة ومألوفة. ربما لا تكون حياتي مثالية لكنها الحياة التي أعرفها.

كانت معجزة أن أفراد عائلة ماكجرودر استطاعوا أن يضعوا كل المتاع في السيارة بطريقة لا تنم عن إمكانية وقوعها قبل وصولهم إلى مرفأ «سوث وست». تعانقت أنا وبتسي وعاهدنا بعضنا بعضًا أن نكتب خطابات يوميًا،

وأخذنا نلوح بأيدينا حتى توارت السيارة عن الأنظار. أخذت في السير إلى البلدة، لقد كنت أسير في هذا الطريق كل يوم في أثناء الصيف. لم أكن أذهب دائمًا في نفس الوقت، ولكني كنت أسير على نفس الطريق. بعد بيت بتسي بناصية كنت أتجه يسارًا إلى شارع ناسو وأسير فيه وأنا أمرُّ بأفضل منازل ميلرتون التي لم تكن في حجم منزلنا لكنها كانت في فخامة منزل جدي وجدتي. كان المفضل لديَّ؛ ذلك المنزل الذي تتصدره نافورة في وسط الفناء الأمامي على هيئة زهرة نرجس كبيرة تتدفق المياه منها على الرخام ليلاً ونهارًا.

بعد المنازل الفخمة تأتي البيوت الصغيرة، ثم فجأة أصل إلى وسط مدينة ميلرتون. أتنهد تنهيدة صغيرة . إنني أحب ميلرتون وأتمنى ألا أضطر أبدًا لتركها.

كنت دائمًا أسير في الجانب الشرقي من شارع ناسو، ثم أتوقف عند مسرح جاردن لمعرفة ما يُعرض من الأفلام فيه. مؤخرًا أقام السيد والسيدة فينش، صاحبا دار العرض، مهرجانًا لأفلام شيرلي تمبل ولم يكن مما يمتعني. حسنًا، عليَّ أن أنتظر فيلمًا جديدًا. لم يكن معي نقود كافية على أية حال. كان من الممكن أن تدعوني جدتي ولكن إذا ذهبت معها فيجب أن أتأنق للذهاب للكنيسة وذلك يتضمن ارتداء قفازات بيضاء، ومعنى هذا أنني لن أستطيع أن آكل شيكولاتة أو فشارًا بالزبد، وذلك لا متعة فيه على الإطلاق.

كنت أسير بعيدًا عن دار عرض جاردن وأنا أشعر ببعض الإحباط عندما رأيت علامات زرقاء وحمراء مثبتة على كشك بجانب حامل الجرائد.

أعتقد أنني أرى كلمة كرنڤال.. فاقتربت أكثر وقرأت: قريبًا كرنڤال المرح لفريد كارميل، مهرجان للمرح وموكب كرنڤال – 25 يونية.

بعد مسافة قصيرة رأيت إعلانًا آخر؛ كرنڤال المرح لفريد كارميل؛ مراجيح، جوائز، استعراضات، أكلات متنوعة من كل أنحاء العالم!

وبعد ناصية أخرى، كانت هناك ملصقات: كرنڤال فريد كارميل سوف يضم سيدة ملتحية ورجلاً مغطى بالوشم. والمرأة المطاطة وأكثر من ذلك. سوف يكون هناك دولاب فاريي[1] والقطار الحلزوني وبيت الأشباح.

لا بد أن أبدأ من الآن ادخار النقود؛ فذلك يبدو أكثر إمتاعًا من السيرك الذي جاء إلى ميلرتون منذ عامين.

نظرت إلى ساعة يدي، كانت الساعة 12:10 (ساعتي كانت مضبوطة جدًّا وذلك بفضل السيد بني) . لابد أن جدتي وصلت إلى المنزل منذ عشر دقائق. لا أريد أن أعود إلى المنزل، لكن معدتي بدأت تئن من الجوع وليس معي نقود تكفي لشراء الغداء من المدينة، هذا بالإضافة إلى أن اليوم قد صادف اليوم الذي تخبز فيه كوكي الفطائر.

حَشرتُ يدي في جيبي بشدة واستأنفت السير مسرعة. حييت السيد شوكارد في الـ«ميت واجن» والسيد هاليت في دكان الأحذية، والآنسة كونروي العجوز في دكان ستاف آند نانسنس، لوَّحت لجاك الذي كان على وشك أن يقف بسيارته نصف النقل عند الناصية وقلت له إنني ربما أراه بعد قليل. عبرت الشارع عند التقاطع التالي وقابلت الآنسة جوليات، وهي أول ضابطة شرطة امرأة في ميلرتون، وقالت: «صيفًا سعيدًا يا هاتي!».

---

(1) عجلة عملاقة بها عربات تدور رأسيًّا ومنتشرة في الملاهي.

اتجهت يسارًا وأسرعت في الاتجاه الآخر لشارع ناسو عبر مكتب محامي أبي ومكتبة ردبريك. كنت على وشك أن أترك دكان كليتون للغزل والصوف عندما خرجت السيدة وينتر بوثام وأمسكت بمرفقي وهي تقول: «اصنعي لي معروفًا يا هاتي وبلغي الآنسة هاجرتي أن صوف الأنجورا قد وصل».

قلت لها: «حسنًا»، وأخذت أعدو حتى وصلت إلى المنزل الساعة 12:25. أخذت أبحث عن دلائل على وجود جدتي فلم أجد! لم تكن هناك سيارة أمام المنزل. إما أنها ليست هنا وإما أنها فضلت السير على الأقدام. سرت على أطراف أصابعي إلى الداخل وأنا أغلق الباب السلكي ورائي، كنت على وشك الكلام عندما سمعت جدتي وأمي تتحدثان في غرفة الجلوس. كانتا تتكلمان بصوت هادئ.

قالت جدتي: «أخاف أن يكون ذلك سببًا في موت هايدن».

وطئت قدمي لوحًا خشبيًّا له أزيز؛ فنظرت أمي وجدتي بحدة.

قالت جدتي: «مساء الخير يا هاتي».

الفصل الثالث

أجبت: «أهلاً يا جدتي»، وانتظرت أن يُستأنف الحديث.

«من هو هايدن الذي تتكلمان عنه؟ أهو أبي أم عمي هايدن؟ وماذا سيسبب موته؟».

كانت جدتي تتصرف كما لو لم تكن قد ذكرت الموت. وقفت وهي ترتجف بعض الشيء فاستعادت توازنها واستندت إلى ذراع الكرسي، ثم أزالت بيدها بعض الثنيات الوهمية من ردائها.

سألت الجدة: «حسنًا يا هاتي، هل ستنضمين إلينا على الغداء؟». كنت أشعر بها وهي تتأمل شعري المبتل بالعرق والصندل والسروال القصير.

نظرت إلى أمي، وقد بدا عليها الألم. كنت أعرف أنها لا تهتم بما أرتديه على الغداء، ولكنها لم تكن تريد أن تعارض أمها. في الواقع أن هذا ليس صحيحًا تمامًا؛ فأمي كانت تضرب بأمنيات جدتي عرض الحائط، إذا كانت

تتعلق بأشياء مهمة مثل من تتزوجه أو المنزل الذي سوف تعيش فيه. ولكن عندما يتعلق الأمر بأشياء صغيرة مثل مظهري على الغداء عند وجود جدتي - فغالبًا ما كانت أمي تستسلم، لم أكن أفهم ذلك. أعتقد أن هذه الأشياء الصغيرة ليست سوى عربون للصلح، ولكن من أجل ماذا؟ لأنها تدير نزلاً أو لأمر آخر، ربما شيء خاص بالكبار لست جزءًا منه.

قالت أمي: «ما رأيك لو صعدتِ إلى أعلى لتمشطي شعرك يا هاتي؟».

حل وسط؛ تحاول أن ترضي جدتي ولا تضايقني بلا ذريعة.

أفعل ما أُمِرتُ به ببطءٍ شديد جدًّا؛ لأظهر أن الأمر يمثل عبئًا عليَّ. عندما انتهيت، هبطت الدرج على أطراف أصابعي؛ آملةً أن تستأنف جدتي حديثها عن موت هايدن.

كنت في منتصف الدرج عندما جاء أبي ورائي وهو يدق بقدميه، فأسرعت الخطى؛ لأتظاهر بأنني لم أكن أسترق السمع.

سألني: «كيف كانت رحلتك يا جميلتي؟».

«جيدة».

«هل أنتِ مستعدة لجدتي؟ هيا سوف أصطحبك».

أخذني أبي من ذراعي ونزلنا الدرج معًا.

كانت أمي وجدتي قد انتهتا من الحديث وكانتا جالستين إلى مائدة الطعام. نظرت جدتي إلى قميص أبي الملطخ بالألوان (لا بد أنه انتقل إلى رسم البورتريه بعد أن تركته في الصباح) كانت جدتي قد يئست من التعليق على ملابسه. وكانت تعلم أن هناك حدودًا لا تستطيع أن تتخطاها؛ فكانت تمسك لسانها أمامه.

تظاهر أبي بأنه لم ير جدتي وجلس على مقعده وتناول كأسًا من الماء.

نظرت حول الغرفة. كانت هناك أماكن لستة أشخاص على المائدة؛ وهو ما يعني أن السيد بني والآنسة هاجرتي سوف يأكلان معنا، وبعد دقائق وصلا. جاءت الآنسة هاجرتي ورائحة عطر اللاڤندر تسبقها، ودخل السيد بني مسرعًا وهو ينظر في ساعته.

حسنًا، كنا نمثل مجموعة غريبة فعلاً. وأعرف لماذا لا تأتي جدتي للغداء كثيرًا في منزلنا. فأولاً كنا نادرًا ما نرتدي ما تعتبره جدتي طرازًا مناسبًا. علاوة على ذلك مع أن جدتي لم تكن تجلس إلى رأس المائدة عند زيارتنا (إلا حالما يكون جدي معها) فإنه لا توجد خادمة تظهر من المطبخ فتقدم لنا الأطباق وتنتظر بصبر حتى نغرف لأنفسنا.

ولا يوجد أيضًا جرس تحت قدم جدتي لتستدعي به الخادمة من المطبخ عند الحاجة.

أمي تمرر الأطباق فنملأ أطباقنا. في البداية لا يتكلم أحد، فقد كنا نشعر كلنا بنظرات جدتي وهي تتفحصنا.. فجأة أصبح الكل يراعي آداب المائدة. هل مناديل المائدة في مكانها الصحيح؟ هل نحتفظ بأيادينا الأخرى على أرجلنا؟ نظر السيد بني إلى الآنسة هاجرتي؛ ليتأكد ما إذا كان يستخدم الشوكة الصحيحة. نظرت إلى طبق أبي لأرى أين أضع السكين عندما لا أستخدمها. أعرف أن هناك قاعدة ما.

تنحنحت جدتي فجفلنا كلنا. قالت جدتي: «حسنًا، هل لأحدكم خطط مسلية في الصيف؟».

لم أهتم كثيرًا بالإجابات. ما كنت أريد أن أعرفه في المقام الأول هو لماذا جاءت جدتي اليوم؟ كان جدي وجدتي نادرًا ما يأتيان لزيارتنا في أوقات

الوجبات. ربما يكون الطاهي في عطلة اليوم. لكن جدتي كان من الممكن أن تتناول بقايا طعام اليوم السابق، لا، لا بد أن هناك سببًا آخر جعلها تأتي اليوم، وهذا الأمر له علاقة بالشيء الذي سيسبب موت هايدن.

أرجع إلى سؤالي الأول أيّ هايدن كانت تتكلم عنه؟ من الأرجح أنها تعني أبي؛ حيث إن الموت أقرب إليه من خالي هايدن وهو أقرب إلينا. فخالي هايدن - الأخ الأكبر لأمي - يعيش في كاليفورنيا ونادرًا ما نراه.

رحت أفكر شاردة في الأشياء التي قد تتسبب في موت أبي المفاجئ عندما سمعت جدتي تنطق كلمتين جعلتا معدتي تضطرب ودفعتني الشوكة إلى أن أتوقف عن الأكل وأنتبه إلى الحديث. كانت الكلمتان هما: «رقصة الكاتيليون»[1] قالت جدتي في أكثر نبراتها مرحًا عندما تكون في جمع من الناس:«.. وأنا أحد أعضاء اللجنة المنظمة، لقد عملنا بجد طوال الربيع ونتوقع أن يكون ذلك الحدث رائعًا.. الرقصة سوف تكون لسن الحادية عشرة والثانية عشرة».

شعرت الآن بنظرات جدتي لي؛ ولذلك تشاغلت بالاهتمام بغرس سن الشوكة في البسلة.

تمتمت أمي: «لا تلعبي بطعامك يا عزيزتي».

أسقطت الشوكة من يدي.

«سوف تكون الرقصة بعد ظهر اليوم الخامس عشر من يولية يا هاتي».

---

(1) الكاتيليون هو اسم لرقصة غربية مشهورة في أمريكا.

قالت جدتي: «سوف يوافق ذلك اليوم السابق لعيد ميلادك. أعتقد أن اشتراكك في الرقصة سيكون بداية جميلة للاحتفال». لم أجب. جدتي تعرف جيدًا موقفي من تلك الرقصات، أنظر إلى أبي لينجدني، ولكنه كان يغرف البسلة في طبق الآنسة هاجرتي.

نظرت إلى أمي لتنجدني، فقالت لي: «سوف نشتري لك فستانًا جديدًا».

تهلَّلت الآنسة هاجرتي وصاحت: «أوه! أوه! سوف أصنع لكِ رداء.. سيكون ذلك متعة بالنسبة لي.. فمن يعرف يا حبيبتي فربما تلتقين شابًا ظريفًا في الحفلة».

لقد كان حريًّا بي أن أستمتع بفستان مثل الذي ترتديه فتيات «دوبي جيليس»، لكنني ما كنت لأرقص به حتى لو كان دوبي نفسه هو شريكي في الرقصة.

ابتسمت للآنسة هاجرتي وقلت لها: «شكرًا لكِ».

مستحيل أن أشترك في تلك الرقصة. الحمد لله لم أشترك في رقصة الكريسماس؛ لأنني كنت أشكو من التواء في العنق. لكني اضطررت أن أذهب إلى رقصة الصيف وكانت مخصصة للأطفال في سن التاسعة والعاشرة. كانت تجربة مريعة. بتسي لم تكن هناك بالطبع، وظللت ساعة كاملةً دون أن يأتي أحد ليسألني أن أرقص معه، فوقفت وحيدة أتظاهر بأني أبحث عن شيء في حقيبتي وأحاول أن أساعد المشرفين في توزيع المشروبات حتى أكون مفيدة لا منبوذة.. وطوال الوقت كانت نانسي أونيل وجانيت وايت المريعتان تهمسان للولدين اللذين يرقصان معهما وتشيران إليَّ، في الساعة الثانية طلبني أحد الأولاد الذين رقصوا مع جانيت للرقص.

ولكني أعتقد أن ذلك كان جزءًا من دعابة خاصة؛ فعندما انتهت الرقصة رأيت جانيت ونانسي تضحكان بشدة وتشربان من براد المياه.

كانت جدتي تنظر إليَّ وهي تنتظر أن أعرب بطريقة مهذبة عن سعادتي بالرقصة.

أنقذتني الآنسة هاجرتي عندما قالت: «لننظر إلى الموديلات اليوم يا عزيزتي. أنا أفكر في رداء ذي خصر منحدر وعليه شريط وفتحة عنق مستديرة وأكمام طويلة، والخامة من قماش التافتاه أو الأورجاندي»[1].

قلت لها: «لا بأس».

بعد الغداء عندما نكون بمفردنا أستطيع أن أعترف للآنسة هاجرتي بأنني لن أحتاج الفستان وسوف تتفهم كعهدي بها. السيد بني قال - وفي عينيه نظرة حالمة - إنه يتذكر رقصة كهذه عام 1902 وذكَّر ذلك الآنسة هاجرتي بمعجب قديم، وهو الذي ذَكَّر السيد بني بالحرب العالمية الأولى.

وقبل أن أدرك ما يحدث كانت رقصة الصيف قد أصبحت في طي النسيان وموضوع موت هايدن قد أُغلق الحديث فيه.

وفي نهاية الغداء هربت من المائدة بأسرع ما يمكنني.

---

(1) نوع من الأقمشة.

الفصل الرابع

معظم الوقت لا أعرف ما إذا كان يجب عليَّ الإعجاب بأمي أو الغضب منها. أظن أنه يجب عليَّ الإعجاب بها وبشجاعتها؛ لأنها استطاعت أن تقف في وجه جدي وجدتي وتتزوج أبي رغم أنهما لم يكونا موافقيْن عليه. كان أبي رسامًا من عائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة في الجنوب وبلا أي مميزات اجتماعية، تخرَّج في جامعة يال (منحة دراسية) وكانت أمي تعرف أن جدتي سيكون من الصعب عليها أن تعترض على زواج يجمع يال وهال يوك. كان أهم ما في الموضوع - كما قالت لي أمي - هو شعور أمي بأنها هي وأبي كالأرواح المتآلفة، وأن لا شيء سيقف أمام رغبتها في البقاء معه طيلة حياتها، فتزوجا واستقرا في ميلرتون وقرر جدي وجدتي أن يتقبلا أبي. وعندما لم يستطع أبي أن يكسب قوت يومه من الرسم اشترى هو وأمي المنزل الكبير الكائن في طريق جرانت وحوَّلاه إلى بنسيون.. كانت شفتا جدتي المزمومتان كلما مرت بطريق جرانت تعبران

عما بداخلها تجاه البيت، وكانت أمي تتجاهلها إلا عندما تستسلم لها في نحو ما يقارب نصف الوقت.

عندما غادرت جدتي المنزل بعد الغداء راحت أمي تراقبها وهي تسير مبتعدة، ثم قالت: «هيه».. وأخذت منديلاً من جيبها وربطت به رأسها حتى تساعد توبي في التنظيف.

جلست في الشرفة الأمامية بمفردي عدة دقائق، وقررت أن أطرد من فكري موضوع رقصة الكاتيليون وموت هايدن، وقضيت بقية اليوم أنجز الأشياء التالية:

1- أساعد كوكي في المطبخ؛ فكافأتني بقطعة من فطيرة توت العليق. 2- ساعدت أمي وتوبي في تنظيف المنزل. 3- استلقيت في الفراش وأخذت أقرأ رزمة الكتب التي استعرتها من المكتبة. 4- أحمل صينية الشاي إلى الآنسة هاجرتي وأشرح لها لماذا لا أريد فستانًا من قماش الأورجاندي. 5- أرسم مع أبي في الاستوديو.

عندما أعلن أبي أنها السادسة وأن الوقت قد حان لتناول العشاء كنت حقيقة مندهشة. هذا هو السبب وراء حبي للصيف ووراء رفضي أن أقضي الصيف في أي مكان آخر. طوال العام كنت أترقب تلك الأيام التي تمتد أمامي بشكل لا نهائي والتي تمتلئ بالنزهات والكتب والرسم والآنسة هاجرتي، والتي تخلو من التحدث أمام الفصل والجمانيزيوم والرقص والبنات الثرثارات. وأفضل ما فيها عندما ينتهي اليوم، والأمسيات لا تزال تمتد أمامي.

نتناول العشاء معًا - أبي وأمي والأنسة هاجرتي، السيد بني، نحن فالنتين وأنا. وعندما تُرفع المائدة أنظر إلى الأنسة هاجرتي في ترقب.

سألتني الأنسة هاجرتي: «عصير الليمون؟».

أجبتها: «أنا وكوكي أعددناه بعد ظهر اليوم».

بدت الأنسة هاجرتي وكأنها تريد أن تصفق وتقفز، ثم قالت: «سوف أنتظرك في الشرفة».

قال السيد بني وهو على وشك أن يبتسم: «وقت عصير الليمون، أليس كذلك؟».

ونظرت أنجيل فالنتين إليَّ باهتمام بعد أن استبدلت ملابس العمل وعبرت بسرعة حجرة المائدة وهي حافية القدمين، ثم قالت: «هل هناك عصير ليمون؟».

كانت أنجيل رائعة للدرجة التي أنسى بها أنها تعيش معنا منذ شهر واحد فقط. كانت لا تعرف - بعدُ - الروتين الخاص بنا.

قلت لها: «في الصيف ابتداء من أول أيام الإجازة نتناول عصير الليمون كل مساء بعد العشاء في الشرفة الأمامية».. في الواقع كنت أنا والأنسة هاجرتي فقط اللتين تشربان الليمون في الشرفة كل ليلة، فقد كان نادرًا ما يشاركنا أبي وأمي، أما السيد بني فكان يتناول عصير الليمون معنا كلما تسنّى له ذلك.

أتساءل إن كانت أنجيل فالنتين تريد أن تنضم إلينا في تلك الأمسيات.

فتحت الثلاجة وأخذت منها إبريق الليمون الذي أعددته أنا وكوكي ووضعته على صينية مع الأكواب، ثم حملتها بحذر إلى الشرفة. صبت

الشراب للآنسة هاجرتي والسيد بني وآنجيل ثم سمعت أبي ينادي: «هاتي».

استدرت فرأيته عند الباب ينظر إليَّ من وراء الباب السلكي: «هل تستطيعين أن تأتي لدقيقة؟».

كنت على وشك أن أقول له إننا نشرب عصير الليمون الآن، ولكن نبرة صوته استوقفتني. كان قوله أقرب إلى الأمر منه إلى السؤال.

قلت وأنا أضع الكوب الفارغ: «حسنًا».

أشار أبي إلى غرفة الجلوس حيث رأيت أمي جالسة على الأريكة باستقامة شديدة وتبدو طويلة، لكن غير واثقة من نفسها، كما لو كانت تتأهب لصورة المدرسة. كنت لا أزال أقف عند الباب عندما قالت لي: «هاتي، أنا وأبوك نريد أن نتكلم معكِ في موضوع ما».

تهاويت جالسة على الكرسي؛ توقعت أنهما سيجبرانني على الاشتراك في رقصة الكاتيليون.

واستطردت أمي: «موضوع مهم جدًّا»، فعرفت أنها ستتكلم عن موضوع موت أبي.

سألت: «هل هو أبي؟».

ردت أمي: «أبوكِ؟! لا إنه...» نظرتْ إلى أبي تطلب المساعدة، فنظر أبي إليها ثم رفع كتفيه بخفة.

قالت أمي: «هاتي! كان من المفترض أن نصارحك بذلك منذ وقت طويل».

«ماذا؟ ما هو الذي كان يجب أن تصارحاني به؟».

وضعت أمي يدها اليسرى في حجرها وأخذت تلمسها بسبابة يدها اليمنى، ثم تنهدت قائلة: «لخالك هايدن وأنا أخ آخر»، ثم قالت: «آدم.. خالك آدم».

أجبت: «لي خال آخر؟» كان ذلك شيئًا ممتعًا، خاصة أن أبي كان وحيدًا وأن هايدن لم يتزوج قطُّ. كان هو قريبي الوحيد، بالإضافة إلى أجدادي.. كنت دائمًا أحسد بتسي التي كان لها أربعة عشر عمًّا وعمة وتقريبًا ثلاثون من أولاد الأعمام.

أجابت أمي وهي لا تزال تداعب يدها وتتحاشى النظر إليَّ: «نعم، آدم هو صغير العائلة. وُلِد عندما كنت في السادسة عشرة وهايدن في الثامنة عشرة».

قمت بعملية حسابية في رأسي وأنا أقطب ثم قلت:

«خالي آدم يبلغ من العمر واحدًا وعشرين أو اثنين وعشرين عامًا إذن».

تمتمت أمي: «واحد وعشرون».

«أين يعيش؟ ولماذا لم أقابله؟».

أخذت أمي تداعب يدها، فقال أبي: «آدم كان في مدرسة داخلية في أوهايو منذ كان في الثانية عشرة».

«الثانية عشرة!» كانت صدمة لي. من ذا الذي يذهب إلى المدرسة في الثانية عشرة من عمره ولا يخرج منها؟ رحت أجري عمليات حسابية أخرى وأدركت أنني كنت في عامي الأول أو الثاني عندما غادر آدم المكان. إذن فمن الممكن أن أكون قد رأيته، ولكنني كنت أصغر من أن أتذكر.. سألتهما: «ألا يأتي إلى البيت في الإجازات؟».

فقال أبي: «هاتي، آدم يعاني بعض المشاكل».

«أي نوع من المشاكل؟».

قالت أمي: «هو ليس كالآخرين».

«ماذا تقصدين؟».

تبادل أبي وأمي النظرات، فقال أبي هامسًا: «عنده مشاكل عقلية».

قالت أمي بصوت خفيض: «لقد عاش في مدرسة خاصة». سألت: «فهو متخلف إذن؟ هكذا هي الحال في عائلتي، لا بد أن أطرح عشرين سؤالاً. أتمنى لو يصارحانني مباشرة»، ردت أمي: «لا، ليس متخلفًا تمامًا. لكنه ليس طبيعيًا؛ فهو لا يستطيع السيطرة على نفسه، وتصرفاته غير متوقعة وعشوائية».

قال أبي: «جدتك وجدك عرضاه على عدد كبير من الأطباء وهو صغير. بعضهم قال إنها انفصام في الشخصية[1] والبعض قال إنها حالة توحُّد».

«انفصام، توحُّد. لا أعرف معنى تلك الكلمات».

قلت: «لكن، لماذا لا يأتي إلى البيت في الإجازة؟». قال أبي: «مدرسة آدم مختلفة عن مدرستك يا هاتي؛ فهو يعيش هناك، والمدرسون هناك يعرفون كيف يتعاملون معه».

أضافت أمي: «لكن مدرسته ستغلق أبوابها للأبد، وسوف يأتي آدم ليعيش مع جدتك وجدك هذا الصيف حتى يجدا له مدرسة أخرى. سيذهب جدك إلى أوهايو غدًا وسيأتي بآدم معه يوم الجمعة». حوالي ثمانين سؤالاً خطرت على بالي، لكنني اخترت سؤالاً واحدًا بدا لي أهم من أي سؤال آخر عن ماهية مرض آدم: «لماذا لم يخبرني أحد من قبل عنه؟ أقصد قبل الآن». كنت متأكدة أني لم أسمع به من قبل.

(1) يعرف أيضًا بالشيزوفرانيا وهو مرض نفسي.

أخذت أمي تداعب يدها، أما أبي فكان يبدو عليه أنه يتمنى لو كان معه شراب من ماركة جاك دانيالز.

قالت أمي: «كنا نعتقد أنه أمر غير ضروري».

قال أبي: «لم نكن نريد أن نزعجك».

لماذا يزعجانني؟

كانا يبتعدان عن الموضوع وكأنه نار ملتهبة وهم حفاة.

ألا يعلمان كم هو صعب أن أكون ابنتهما ومع ذلك أراقب من بعيد كالمتفرجة؟

حسنًا، سوف أكتشف الأمور بمفردي، فأنا سوف ألتقي آدم قريبًا على أية حال.

في تلك الليلة، أطفأت الأنوار في العاشرة، ورقدت في سريري لمدة طويلة جدًا أنظر من النافذة وقد جافاني النوم.

كنت أفكر في خالي الجديد آدم، وأحاول أن أتخيله، استمعت إلى ساعات السيد بني وهي تدق الحادية عشرة ثم الثانية عشرة.

كنت لا أزال مستيقظة.

أخيرًا، نزلت السلم على أطراف أصابعي ودلفت إلى غرفة الجلوس المظلمة. أوقدت مصباحًا وعبرت الغرفة إلى الرف الذي نحتفظ عليه بألبومات الصور وأخذت أقلب سريعًا في صوري المفضلة؛ تلك التي كنت فيها صغيرة جدًا.

لكن الليلة كنت في حاجة إلى ألبومات مختلفة؛ ألبومات قديمة لم أهتم بها من قبل، الآن أنظر إلى أحدها وقد بدأ يفقد الغطاء الذي يحكمه،

في ذلك الألبوم رأيت صور جدي وجدتي في يوم زفافهما، وصور أمي وخالي هايدن وهما رضيعان.. هذا الألبوم كان قديمًا جدًّا. وضعته في مكانه، ووجدت ألبومًا آخر كانت أمي تنظر إلى الكاميرا فيه وهي ترتدي «روب» وقلنسوة؛ إنها حفلة تخرُّجها في المدرسة. هذا أفضل، قلبت بعض الصور حتى وجدت صورة لأمي وخالي هايدن جنبًا إلى جنب، وولد صغير يقف بينهما، كان عمره حوالي أربعة أعوام ويرتدي نظارة مستديرة الإطار، كان منحنيًا إلى الأمام قليلاً ويبتسم ابتسامة عريضة للكاميرا.

لم يكن يبدو عليه أنه يعاني أي مشاكل.

أخرجت الصورة من الغطاء البلاستيكي، ثم نظرت إلى ظهرها فقرأت خط أمي: أنا، هايدن وآدم 1942.

في الصفحات الأخرى، كان آدم يكبر بسرعة ويبدو أكثر وقارًا. أرى آدم وهو في الخامسة والنظارة المستديرة تغطي عينيه وكان يقف بجانب عربة غريبة بجوار جدي وجدتي، بعد ذلك بعام كان هناك صورة عائلية وآدم كان الوحيد الذي لا يبتسم ولا ينظر إلى الكاميرا.

أمي كانت تقف خلفه وتضع يدها على كتفه وكانت تبدو متشنجة.

أخذت أتساءل: كيف كان آدم وهو رضيع؟ كيف كان يبدو في الرابعة والسادسة والعاشرة من عمره؟

ثم أتساءل للمرة التاسعة بعد الألف: لماذا لم أعرف آدم قبل الآن؟ ولو لم يكن سيأتي هذا الصيف فهل كنت سأعرفه؟

لو أن شخصًا كان وجوده سرًّا هل نعتبره موجودًا حقيقةً؟ أتخيل جدتي وجدي ومنزلهما المثالي وأحاول أن أتخيل آدم فيه. ربما تظن جدتي وجدي

أنه لا يتماشى مع المكان؛ بالطبع فهو لا يمثل جزءاً من العالم المثالي الذي تحاول جدتي جاهدةً أن تشيده.

لست كاملة أنا أيضًا، لكن لحسن حظي أنني لا أعيش مع جدتي وجدي.

ثم خطر على بالي أن أمي كبرت في هذا البيت، وهذا في الواقع شيء يسترعي الانتباه.

الفصل الخامس

اليوم سأقابل آدم. آدم ميرسر. خالي الجديد. في صباح يوم الخميس أوصل السائق شارلز جدي إلى المحطة في نيو ليبرتي لينتظر القطار القادم من سنسناتي، ثم رجع بجدي وآدم - لا أستطيع أن أفكر فيه كخالي آدم - إلى البيت عند جدتي.

والآن كنت أنا وأمي وأبي على وشك الذهاب إلى جدتي وجدي لتناول العشاء. كنا قد حضَّرنا العشاء للآنسة هاجرتي والسيد بني وآنجيل الذين كانوا سوف يأكلون بمفردهم الليلة. كانت أمسية دافئة انتشرت فيها أصوات صراصير الليل، فسألت أمي وأبي عما إذا كان من الممكن أن نسير إلى منزل جدي وجدتي، ثم قلت: «أمي، متى رأيت آدم آخر مرة؟».

كانت أمي أمام التسريحة تضع بعضًا من عطر شانيل رقم خمسة وراء أذنيها.. نظرت إليَّ من خلال المرآة بحدة وقالت: «لماذا تسألين؟».

رفعت كتفي وقلت: «لا أعرف».

وضعت أمي السدادة على زجاجة العطر وقالت: «كان ذلك منذ زمن بعيد».

وكانت تلك نهاية المناقشة.

بعد ذلك بعشرين دقيقة، كنت أرتدي فستاني الصيفي الذي حاكته لي الآنسة هاجرتي - ذا الألوان الزهرية والبيضاء وذا الجونلة الواسعة والمزين ببراعم الورد حول العنق، ارتديت معه جوربًا من النايلون وحذاء بلا كعب (للمرة الأولى تتفق أمي وجدتي على شيء وهو أنني لا أزال صغيرة على ارتداء الكعب العالي)، وضعت في حقيبتي قفازًا؛ حتى لا تنظر جدتي إلى يديّ العاريتين بتذمر.

عبرنا أنا وأمي وأبي الحديقة ثم اتجهنا يسارًا عند شارع جرانت. كنت قلقة بعض الشيء أن أقابل نانسي أو جانيت اللتين تقطنان في المنطقة المجاورة، واللتين من المؤكد أنهما لا تتجولان في المنطقة مع والديهما وهما ترتديان ملابس الأحد. (كنت سعيدة أن القفاز في الحقيبة ولا أرتديه).

مررنا عبر بيت نانسي ثم بيت جانيت، ولم يكن هناك أحد. استرخيت. لكننا وصلنا إلى منزل جدتي وجدي، وفجأة بدأ قلبي يخفق بشدة.

أنا أحاول أن أقرر إذا كان يجب أن أذكر ذلك أم لا.

عندما فتح الباب الأمامي فجأة وصاح أحدهم: «دوروثي: جوناثان! وهاتي! أوه هوه، هوه هوه!».

وجاء شخص مسرعًا على الممشى وهو يلقي بنفسه إلى الأمام لدرجة كاد معها يصطدم بأمي قبل أن يحضنها، ثم لدهشتي سمعت أمي تقول بدفء: «أهلاً يا آدم».

«أهلًا دوروثي! أهلًا دوروثي! حبيبتي لقد عدتُ للبيت!». لم أسمع أحدًا من قبل يتكلم بالسرعة التي يتكلم بها آدم. واستمر ينطق بعاصفة من الكلمات: «جوناثان، جوناثان، هل أنت مرهق؟ متعب؟ هل تشعر بالإعياء؟ ربما تحتاج «ڤيتاميتاڤيجامين» إنه لسلعة تجارية ممتازة».

ضحكت أمي: «مهلاً يا آدم.. هل كنت تشاهد حلقات (أنا أحب لوسي)؟».

telegram: @mbooks90

«نعم، نعم، (أنا أحب لوسي)، حلقات مضحكة جدًّا.. لوسي وريكي وفريد وإثيل وكل مغامراتهم وأحداثهم. ڤيتاميتاڤيجامين، ها ها ها!».

أشعر أنني بالكاد أستطيع أن ألتقط أنفاسي، وأنا أستمع إلى آدم ابتسم والداي، وقال أبي: «آدم، أتتذكر هاتي؟».

مددت يدي لكن آدم تجاهلها وأخذني في حضنه. «صديقتي القديمة صديقتي القديمة هاتي أوين، كيف حالك؟ كم تبلغين من العمر؟ إثيل: عيد ميلاد من؟ أوه إنه عيد ميلادي، أعني كم ستبلغين من العمر؟ وهي تفهم ما تعني يا ريكي ريكاردو أنا مندهش من تصرفك، لا يليق أن تسأل عن عمر سيدة».

كان آدم أغرب إنسان رأيته في حياتي، لكنه كان يبتسم ويجعل أبي وأمي يبتسمان. توقف قلبي عن الخفقان وشعرت بدوار كالدوار الذي أشعر به صباح يوم الكريسماس.

استدار آدم وأسرع داخل المنزل وهو يشير إلينا أن نتبعه، كنا نعدو حتى نستطيع اللحاق به.

قال آدم بسرعة: «لقد أعددت أيرمالين لحمًا محمرًا بالصوص مع فاصوليا خضراء شهية وبطاطس بالأعشاب والحلو كريم كراميل».

حاولت أن أتذكر إذا كانت تلك القائمة من حلقات (أنا أحب لوسي).

«آدم، آدم، تمهل قليلاً».. أسرعت جدتي إلى الردهة وأبي وراءها. وضعت يدها على ذراع آدم وقالت مرة أخرى: «تمهل».

أغلق آدم فمه كما لو كانت قالت له: «اسكت».

بعد ذلك بثانية فتح فمه ليقول: «هاتي، هاتي، كنت أتطلع بلهفة لرؤيتك مرة أخرى. مر وقت طويل، طويل جدًّا، طويل أكثر من اللازم. آخر مرة رأيتك كنت في الثانية من عمرك، لا لم تكوني قد بلغت الثانية، كنت مجرد رضيعة، مجرد رضيعة يا هاتي».

قال جدي: «لنجلس جميعًا. شيرمان سوف يحضر لنا المشروبات الآن».

«أوه هاه، ها، ها! مشروبات! فكرة رائعة!».

قال آدم: «كنت أعلم أن مشروبي سوف يكون مشروب أطفال». قادنا جدي إلى غرفة الجلوس الكبيرة. اخترنا مقاعدنا ووجدت نفسي بجانب آدم. لاحظت أننا جلسنا بحرص كما لو كنا نخاف أن ينكسر شيء. وأنا لا أعني المقاعد. لا أعرف ما أعني!

سكت آدم الآن بعد أن جلس. تناول مجلة وبدأ يقرأ فيها بصوت خفيض.

رحتُ أتفحصه. كان صغير الحجم. أطول مني قليلاً ونحيفًا لدرجة كبيرة. كنت أستطيع أن أرى العضلات في ذراعيه. حتى عندما يبتسم كان يبدو متوترًا ومنفعلاً. كان وجهه متشنجًا ومشدودًا لدرجة أنه يتهيأ لمن يراه أنه سوف يقفز بغتة من رأسه. لكن بغض النظر عن كل ذلك كان على ما يرام. كان له عينان وأنف وفم كلٌّ في مكانه الصحيح، حقيقة كان يشبه جدي إلى حد كبير، إلا أنه عندما يقرأ يفتح فمه وتلمع شفتاه من اللعاب، وكان يدفع نظارته المستديرة أعلى أنفه رغم أنها لم تكن تنزلق.

ظهر شيرمان ومعه صينية عليها أكواب الشراب.. قالت جدتي: «آدم، من فضلك، اترك المجلة».

ألقى آدم المجلة على الأرض عندما أعطاه شيرمان الشراب. انحنى آدم نحوي وقال هامسًا: «دائمًا ما يقدمون لي شراب أطفال.. ماذا يقدمون لكِ؟».

«أنا أحصل على شراب أطفال أيضًا».

«نعم هذه هي القاعدة، هذه هي القاعدة عندما تكونين صغيرة. لست صغيرًا، لكن لا بأس... كم عمرك يا هاتي؟!».

لم تتح لي الفرصة لأجيبه؛ لأن جدي وقف في وسط الحجرة وهو يرفع كأسه ويضع يده الأخرى في جيبه. وقف مستقيمًا ومشدودًا وقال: «أقترح أن نشرب في نخب المناسبة السعيدة التي جمعتنا كلنا معًا».

لم أدر لماذا لم يقل «في صحة آدم».

رفعنا كئوسنا وشربنا، ثم رأيت آدم وهو يضع يده في الكوب حتى يلتقط الكرز المندس وسط قطع الثلج.

كنت أعلم أن هذه عادة سيئة.

بالتأكيد، فقد زجرته جدتي وقالت: «آدم!».

رفع آدم يده بسرعة من الكوب، فنثر الشراب عليَّ، وكانت جدتي على وشك القيام لكني قلت: «ليست هناك مشكلة، أنا على ما يرام».

نظرتُ إلى آدم: «الجو حار هنا وقد سبب لي بعض الانتعاش».

تألق وجه آدم بعد انكماشه استعدادًا للبكاء: «حقيقي؟».

همست له وأنا أنظر إلى جدتي: «نعم، لكن لا تفعلها مرة أخرى»، ثم قلت بصوت عالٍ: «سوف أبلغ الثانية عشرة في عيد ميلادي القادم».

«الثانية عشرة! الثانية عشرة! تخيلوا ذلك».

دخلت إيرمالين الغرفة بلا ضجيج وهمست لجدتي.. عندما غادرت الغرفة أخذ جدي وجدتي يتحدثان عن أصحاب لأمي على وشك طلاق فاضح، ظل أبي وأمي ينظران إلى آدم، وجدتي توجه إليهما أسئلة كمحاولة منها لاسترعاء انتباههما بالحديث. لقد رأيت ذلك من قبل، إنها طريقة جدتي الفعالة والمزعجة جدًّا في تجاهل الفيل الموجود في حجرة الجلوس. لكن، لماذا تنظر إلى آدم على أنه فيل؟ لماذا لا يكون ابنهم فقط؟ لم أكن مهتمة بالطلاق الفاضح والذي من الأرجح أنه ليس فاضحًا على الإطلاق. أخذت أقلب في شرابي وأعقد قدميَّ معًا ثم أحلهما.

بدأت أشعر بالإحراج عندما استدار آدم وقال:

«أنا أعرف ميعاد عيد ميلادك يا هاتي، نعم أنا أعرف، إنه في يولية، السادس عشر من يولية. أنا أتذكر يوم مولدك. ماذا ستفعلين يوم عيد

ميلادك يا هاتي؟ هل ستنظمين حفلة؟ حفلة عيد ميلاد إثيل لم تكن ناجحة، لم تكن ناجحة على الإطلاق؛ فقد تشاجرت هي ولوسي».

أجبت: «لا أعرف ماذا سأفعل»، أحاول الآن أن أجد طريقة لإخراج الكرز دون أن ألفت النظر. «ليس لديَّ أصدقاء كثيرون لأدعوهم إلى حفلة».

«ليس لديكِ أصدقاء كثيرون؟ أوه هاتي! هاتي، هذا غير ممكن، غير ممكن على الإطلاق!».

«لا إنها الحقيقة. لـديَّ صاحبة واحـدة؛ بتسي، وهي ترحل في الصيف»، لماذا أقول لآدم كل ذلك؟ أخذ آدم ينظر إليَّ بإمعان، لم يعرني - إذا استثنيت والدي والآنسة هاجرتي - أيٍّ من الكبار مثل هذا الاهتمام من قبل، لكن آدم ليس مثل الكبار «حسنًا، لا بد أن يكون عيد ميلادك هذا الصيف مختلفًا، مختلفًا جدًّا.. ماذا تريدين لعيد ميلادك يا هاتي؟ أي نوع من الهدايا؟».

كنت أفكر في ذلك عندما جاء شيرمان وأعلن أن العشاء جاهز. وقفنا كلنا وسارع الكبار إلى حجرة المائدة بينما سرت أنا وآدم وراءهم. قال آدم هامسًا ولكن بصوت مسموع: «خذي الكرز الآن، خذيه الآن يا هاتي. الآن، قبل فوات الأوان».

أخذته فعلاً، ثم أخذني آدم معه وهو يتأبط ذراعي وأجلسني على المقعد المخصص لي إلى المائدة.

ساد المكان صمت عميق أثناء مرور إيرمالين بالأطباق علينا وهي تنتظر خلف كل فرد وهو يغرف نصيبه من اللحم والخضر والبطاطس، تنفستُ الصعداء عندما غادرت المكان.

بدأنا نأكل. كان آدم يأكل بنفس السرعة التي يتكلم بها.. لم أستطع أن أُحوِّل عيني عنه. كان يجلس في الجهة المقابلة لي وأخذت أراقبه وأنا مفتونة به وهو يلتهم شوكة تلو شوكة ممتلئة بالطعام، كان في معظم الأحيان ينسى أن يغلق فمه وهو يمضغ.

كانت جدتي تراقبه هي كذلك، وبعد حين قالت: «آدم، ماذا قلنا منذ قليل.. تمهل من فضلك».

نظر آدم بحدة إلى أمه، ووضع من فوره ملء أربع ملاعق من اللحم المحمر في فمه وهو يسلط نظراته إليها.

قالت بهدوء: «آدم، تذكر آداب السلوك أمام الناس».

دق آدم المنضدة بقبضته فقفزت معه أدوات المائدة وأنا أيضًا قفزت - «آدم، تذكر السلوك أمام الناس». قالها آدم بنفس نبرة جدتي، ثم لاحظت أنه بدأ يتمهل قليلاً بعد ذلك، كما أنه كفَّ عن الكلام.

شعرت بخيبة الأمل، بدأ الكبار يتناقشون حول عرض سوف يبدأ في مدينة نيويورك، وكان جدي وجدتي يتكلمان بسرعة، أخذت أراقب آدم وأنا أتمنى أن يسألني عن عيد ميلادي أو لماذا يظن أنني ينبغي أن يكون لي أصدقاء كثيرون.

كان وجه آدم قد امتقع، وعندما وُضِعَ الحلوُ على المائدة أمسك آدم طبق الكريم كراميل بكلتا يديه وحاول أن يبتلعه كما لو كان يحتوي على بقايا اللبن في طبق من الحبوب.

وقف جدي فجأة وقال: «حسنًا. هذا كثير. آدم».

لم ينتظر آدم ليسمع أكثر من ذلك. دفع مقعده إلى الوراء وخرج مسرعًا من الغرفة بنفس الطريقة التي كنت أتمنى أن أخرج بها من المطبخ في ذلك الصباح.

لم أر آدم في ذلك اليوم مرة أخرى.

الفصل السادس

كانت عائلتي لا تواظب على الذهاب إلى الكنيسة، أقصد بعائلتي: أنا ووالديَّ، أما جدي وجدتي فيمثلان حالة مختلفة؛ فهما يذهبان إلى الكنيسة كل أحد، وعندما يكون الطقس جميلًا يسيران، وذلك يستلزم المرور من أمام منزلنا؛ لذلك لم أدهش عندما رأيتهما في الساعة 9:30 من صباح اليوم التالي بملابس الأحد، لكنني اندهشت عندما رأيتهما يتوقفان ويتجهان إلى شرفتنا الأمامية. وكنت سعيدة جدًّا عندما أدركت أن آدم معهما. كان يسير متشاغلاً وراءهما، فتحت الباب السلكي وقلت: «أهلاً».

اندفع آدم بين جدي وجدتي قائلاً: «هاتي، هاتي! صباح الخير، صباح أحد جميل».

كان يرتدي قميصًا قطنيًّا لونه أخضر باهت وذا كُمين قصيرين، ورباط عنق أحمر، وسروالًا من الصوف، وحذاء رياضيًّا مع جورب أبيض. وكان الجورب الأبيض يليق مع الحذاء الرياضي ولكن لا يناسب السروال الذي

كان يبدو وكأنه جزء من بذلة صيفية، أمس كان شعر آدم المُموج ممشطًا بفرق على الجانب، أما اليوم فكان الفرق في الوسط وكان شعره مفرودًا بكريم «بريل».

أجبت : «صباح الخير».

لحقت أمي بي على الشرفة قائلة: «صباح الخير جميعًا». لاحظتْ وجود آدم فرفعت حاجبيها باندهاش.

قالت جدتي: «دوروثي، قداس الأحد سيبدأ بعد نصف ساعة وآدم يرفض أن يأتي معنا، فهل يستطيع أن يمكث هنا هذا الصباح؟».

نظرت أمي إلى أخيها.

قال آدم: «لا ، لا شكرًا . لن أذهب. الكنيسة لا، الكنيسة لا. شكرًا جزيلاً».

قالت أمي: «ألا يستطيع المكوث في البيت؟».

ظهر أبي خلف الباب السلكي وقال: «ماذا يحدث؟».

همست أمي إلى جدي وجدتي كما لو لم يكن آدم يقف على بُعد ذراعين منهم: «هيا نذهب إلى الداخل».

دخل جدي وجدتي وراء أمي إلى البيت، نظر آدم إليَّ وسأل: «أين الآنسة هاجرتي؟».

«الآنسة هاجرتي؟ هل تعرفها؟».

«نعم، أوه! نعم.. سيدة جميلة، سيدة جميلة، حقًّا. هل ما تزال تعيش هنا؟ أوه! ربما تكون ماتت، ربما توفيت. انتقلت إلى الرفيق الأعلى. لابد أنها في الثمانين أو التسعين أو ربما فوق التسعين من عمرها».

«يا إلهي! لا يزال أمامي وقت طويل لأبلغ التسعين يا فتى». جاءت الآنسة هاجرتي إلى الشرفة ومعها حقيبة التريكو.

«الآنسة هاجرتي، الآنسة هاجرتي . أوه! هوه، هوه، هوه!

أنتِ هنا! قالوا إنك سوف تكونين هنا. ولكن كان يجب أن أراكِ بعيني».

أعطى آدم للآنسة هاجرتي حضنًا من أحضانه، وجلسا معًا في الشرفة يتأرجحان.

سألتُ آدم: «هل تعرف السيد بني أيضًا؟».

«السيد بني، السيد بني، طبعًا أعرف السيد بني. الأرنب الأبيض. يتأخر. دائمًا ما يتأخر. ينظر إلى ساعته، يصلح الساعات. متأخر، متأخر، متأخر، وأسرع، أسرع، أسرع. أين هو؟ بصراحة يا سيدة ريكاردو لقد وقعت فريسة لنوبة فظيعة فظيعة، من الجابلووت جابلووت! ما هذا المرض يا دكتور؟ حسنًا نحن الأطباء لا نعرف الكثير عنه، ولكن هناك عدوى منتشرة الآن».

هرعت لإيقاف آدم قبل أن يستغرقه الحديث وقلت:

«هل تحب أن تقابل السيد بني؟ إنه فوق.. أستطيع أن أذهب لاستدعائه».

«نعم، أوه! نعم، حسنًا، حسنًا، حسنًا».

ترددت برهة وأنا أتساءل عما إذا كانت الآنسة هاجرتي ستعرف كيف تتصرف بمفردها مع آدم. رفعت الآنسة هاجرتي رأسها ونظرت إلى آدم لتقول: «احكِ لي كل أخبارك».

نويت أن أصعد مباشرة غرفة السيد بني. كنت عازمةً فعلاً على استدعائه. لكنني لم أستطع أن أقاوم الوقوف خارج غرفة الجلوس لأسترق السمع للحظة.

كانت أمي تقول: «آدم ليس طفلاً رضيعًا يا أمي، سوف يبلغ الثانية والعشرين من عمره.. ألا يستطيع البقاء في البيت بمفرده؟!».

قال جدي: «إنه أخوك يا دوروثي، ألا ترحبين به في بيتك؟».

«بالطبع، أهلًا به في أي وقت». ليست تلك هي المشكلة.

أنا فقط لا أفهم لماذا تظنين أن آدم صغير لدرجة أنه يحتاج جليسة أطفال؟ لقد أصبح رجلاً راشدًا؟

ردت جدتي: «أنا أعرف كم يبلغ من العمر، ولكن لا يزال الوقت مبكرًا لتركه حتى يتصرف بمفرده. ما يزال يحاول التأقلم».

تنهدت أمي.

سمعت جدي يقول: «القداس سوف يبدأ بعد عشرين دقيقة» فتدخَّل أبي بسرعة: «لا مشكلة أن يقضي هذا الصباح معنا».

رجعت إلى الوراء وصعدت عَدْوًا إلى غرفة السيد بني، طرقت الباب وأخبرته أن آدم هنا، ثم قلت: «إنه يريد أن يراك».

«آدم ميرسر يا إلهي! سوف أنزل إليه بأسرع ما يمكن».

عندما هبطت إلى الدور الأول كان جدي وجدتي على وشك المغادرة، فقال أبي فجأة: «انتظروا جميعًا! سوف أحضر الكاميرا السينمائية».

قال جدي: «جوناثان، سوف نتأخر».

هرع أبي عبر الصالة وهو يقول إنه يوم جميل، وإن جدي وجدتي يلبسان ملابس الأحد الأنيقة.

بعد ذلك بدقائق كانت جدتي وجدي وآدم وأمي والآنسة هاجرتي وأنا نقف في صف واحد على درجات الشرفة ونحن نغمز بأعيننا في ضوء الشمس.

ثم هرع جدي وجدتي إلى الكنيسة.

قال جدي: «سوف نراك بعد ساعتين يا آدم».

وأضافت جدتي: «راعِ سلوكك أمام الناس يا آدم».

أخذت أمي وأبي يتبادلان أطراف الحديث مع آدم والآنسة هاجرتي وأنا حتى حان وقت إعداد الطعام. بعد أن غادرا المكان، نظرت بامتنان إلى الآنسة هاجرتي فلم أكن أعرف كيف أشعر أو عن ماذا نتكلم لو كنت بمفردي مع آدم. لكن الآنسة هاجرتي كانت تستطيع أن تجعل الحجر ينطق كما كانت دائمًا تردد «أسعدني ذلك».

كانت الآنسة هاجرتي تتحدث إلى آدم بشيء خاص بحلقات (أنا أحب لوسي)، عندما ظهر السيد بني في الشرفة فقفز آدم وقال: «ها هو! ها هو! السيد بني صديقي العزيز، لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة التقينا. كيف حال المتجر؟ كيف حال الساعات؟ كيف حال الديوك الصغيرة؟».

تجعدت جوانب عيني السيد بني بعض الشيء، وكان ذلك بمثابة ابتسامة بالنسبة له وقال: «حسنًا، المتجر الآن مغلق يا آدم، ولكن الساعات في حالة جيدة».

أتساءل عما إذا كان آدم يشعر وكأنه مثل ريب فان وبتكل وهو يحيي كل هؤلاء الناس الذين لم يرهم منذ سنين مضت. «المتجر مغلق، مغلق الآن، حقًّا؟ حسنًا. هذه أخبار جديدة، ياه!».

أخذت الآنسة هاجرتي والسيد بني يتكلمان بهدوء مع آدم، وبعد دقائق لاحظت أنه لم يعد يتحدث بسرعة كما كان يفعل من قبل.. كل تصرفاته وحركاته اتسمت بالهدوء.

أخذ السيد بني يحكي لآدم عن الساعة الكبيرة، وكيف أني أواظب بإخلاص على شحنها كل أسبوع، ثم نظرت الآنسة هاجرتي إلى ساعة يدها ووقفت على قدميها وهي تقول: «يا إلهي! لا بد أن أذهب إلى الكنيسة يا آدم. آسفة لأنه يتحتم عليَّ أن أتركك».

(كانت الآنسة هاجرتي تنتمي إلى مذهب البريسبتر يان. في حين أن جدي وجدتي كانا يتبعان المذهب الأبيسكو بالين. كانت أمي وأبي يدعوانهما البرسبي والأبسكي، عادة ما يتعبد البرسبي في وقت متأخر من الصباح عن الأبسكي. أمي وأبي يقولان إننا نستطيع أن نتعبد في أي وقت إذا أرسلنا رسائل إلى الله بعقولنا؛ ولذلك لا نحتاج إلى مبنى جميل لنعبد الله).

غادرت الآنسة هاجرتي المكان مع سيدتين أخريين مرت عليهما بسيارة كرايزلر بُنيَّة اللون. ذهب السيد بني إلى الداخل، كنت أنا وآدم بمفردنا في الشرفة. لاحظت أن آدم يراقبني، ثم قال وهو ينظر إليَّ متأملاً: «هاتي، أعتقد أنك من الذين يمكن أن يغيروا مجرى الكون».

أشرق وجهي رغم أنني لم أفهم ما يعني: «شكرًا لك، أنا...».

قاطعني صوت نعسان من وراء السلك: «صباح الخير يا هاتي».

كانت آنجيل فالنتين تقف بفستان صيفي فاتح وتبدو جميلة، وآثار النوم لم تغادرها، لم أر أحدًا من الكبار ينام لساعة متأخرة مثلما كانت آنجيل تفعل في عطلة نهاية الأسبوع.

قلت: «أهلاً آنجيل، هذا آدم، خالي».

التف آدم لينظر إلى آنجيل ثم هب واقفًا، وفجأة أصبح كتلة من الحركة: فأخذ يمسح يديه في السروال، ويمسح حذاءه في أرضية الشرفة ويرفع نظارته على أنفه، ويمد يده كما لو كان سيصافح آنجيل عبر الباب السلكي فقلت له: «آدم، هذه آنجيل فالنتين، لقد انتقلت إلى هنا الشهر الماضي.. إنها تعمل في بنك، وفي يوم ما ستعمل في مدينة كبيرة كفيلادلفيا أو نيويورك».

تلعثم آدم وقد تغير لون وجهه إلى الأحمر القاني: «هيه، هيه، أوه! هيه، أوه! حسنًا».

ألقى آدم بنفسه إلى الأمام ليفتح الباب لآنجيل وأخذ يدفعه عدة مرات قبل أن يدرك أنه يجب أن يشده، ثم فتحه بشدة بيدٍ واحدة، بينما أشار لآنجيل باليد الأخرى لتجلس في الشرفة.

قالت آنجيل بصوت أجش: «شكرًا لك، يا إلهي! إن الحرارة شديدة اليوم»، تهادت إلى سور الشرفة وأخذت تنظر إلى شارع جرانت.. كانت حافية وتفوح منها رائحة الشامبو ومعجون الأسنان.

لم يرفع آدم عينيه عنها، وقال: «إنكِ تعملين في بنك، تعملين في بنك، أليس كذلك؟».. وفجأة بدأ يتكلم بسرعة مرة أخرى: «لوسي، انظري.. إنني جاد في كلامي.. ماذا دهاك كل شهر، كل شهر تسحبين من حساب البنك أكثر من المسموح.. لماذا؟».

بدت على آنجيل فالنتين الحيرة للحظة، ثم ضحكت قائلة:

«آه! تلك الجملة من (أنا أحب لوسي)؛ الحلقة التي حصل فيها لوسي وإثيل على عمل في مصنع الشيكولاتة.. أليس كذلك؟» فانفرجت أسارير آدم وقال: «نعم، نعم. هذه هي الحلقة.. إنها من أفضل الحلقات، من أفضل الحلقات».

تثاءبت آنجيل وهي تقول: «أعتقد أنني لم ألحق بالإفطار.. أليس كذلك يا هاتي؟».

أحببت آنجيل فالنتين؛ لأنها لم يبدُ عليها أنها تلاحظ أي شيء غريب على آدم.

أومأت برأسي: «لكن عندما تعود الآنسة هاجرتي من الكنيسة سيكون قد حان وقت الغداء».

«حسنًا» قالت آنجيل وهي تعود إلى البيت: «سعدتُ برؤيتك يا آدم. إلى اللقاء».

ردد آدم وراءها: «نعم إلى اللقاء»، والتصق بالباب السلكي وأخذ يراقب آنجيل حتى توارت في الردهة العلوية، ثم بدأ يذرع الشرفة ذهابًا وإيابًا.

قال آدم وهو لا ينظر نحوي: «يا خبر! يا خبر! يا للعجب! يا للعجب! هاي هاتي، هاتي. هل تذكرين آخر مرة ركبت فيها القطار؟ القطار يا هاتي. هل تعرفين أن هناك عربات للنوم وأسرَّة وطعامًا طيبًا للغاية. هناك طعام طيب بالقطار يا هاتي».

ابتسم آدم بسعادة بالغة.

أخذت أراقبه. لاحظت أنه يشبه القطار إلى حدٍّ كبيرٍ؛ فهو مندفع مثله، ويمكن أن يقف فجأة مثله. أنا أعرف ذلك؛ لأنني رأيت ذلك يحدث أمس أثناء العشاء.. كنت أفكر في العشاء ومزاج آدم المتقلب، عندما قال آدم: «أوه! هوه، هوه، هوه هاتي! هل هؤلاء أصدقاؤك؟».

التفتَ سريعًا ونظرت إلى الشارع ورأيت نانسي وجانيت وهما ترتديان تنورتيْن وقميصيْن أنيقين وتحملان كتبًا صغيرة في يديهما. غالبًا كانتا عائدتين من الكنيسة فتوقفتا عند الممر المؤدي إلى منزلنا وكل منهما تتأبط ذراع الأخرى، ثم نظرتا إلى آدم وهما فاغرتا الفم.

قال آدم: «صباح الخير، صباح الخير.. كيف حالكما؟!».

لم ترد الفتاتان.. لكني استطعت أن أرى شبه ابتسام على شفاههما. وكزت نانسي جانيت في جنبها فوكزتها جانيت هي أيضًا في ظهرها.

«هاتي، هل هاتان صديقتاكِ؟ تعاليا، انضما إلينا، نستطيع أن نسقيكما عصير الليمون المنعش المُعَد في مطبخ ريفي».

وضعت جانيت ونانسي أيديهما على فميهما كمحاولة غير مجدية لإخفاء ضحكاتهما.. وخطر ببالي أنهما لم تتعلما شيئًا من ذهابهما إلى الكنيسة. أخذتا تعدوان، وكنت أستطيع سماع ضحكاتهما وهما تبتعدان.

ارتمى آدم على المقعد ونظر إليَّ. اعتقدت أنه ربما سيبكي، لكنه ابتسم قليلاً وقال: «ولقد عادتا إلى البيت.. ويبي ويبي ويبي».

الفصل السابع

انشغلت أكثر من المعتاد منذ اليوم الذي عرفت فيه أن آدم سوف يعود إلى المنزل، أما اليوم - أخيراً - كان عندي الوقت الكافي لأتحدث مع أصدقائي في البلدة، فجلست برهة مع السيد شوجارد في (ميت واجن) وسمح لي بخدمة اثنين من العملاء، ونظراً لأن السيد هاليت كان منشغلاً جداً في متجر الأحذية لم أستطع المكوث طويلاً. أما الآنسة كونروي فلم يكن عندها ضغط عمل، فسألتها: «هل أستطيع مساعدتك؟» فأعطتني صندوقاً من الحيوانات الخزفية لأضع ملصقات الأسعار عليها.

وعندما تركت متجر (ستف آند نانسنس) شاهدت جاك في مكانه المعهود. اشتريت آيس كريم فراولة بالكعك وأخذت أحكي له عن خالي: «سوف يمكث هنا طوال فترة الصيف؛ ولذلك غالباً سوف تقابله».. لقد سمع جاك عن آدم بالطبع؛ فلم يكن هناك أحد في ميلرتون لم تصله ثرثرة عن هذا الموضوع.

انطلقت على الطريق مرة أخرى.. كانت الملصقات الخاصة بكرنڤال فريد كارميل في كل مكان تعلن عن غزل البنات والسيدات الملتحيات وجوائز وأشياء أكثر، دائمًا أكثر. لا أستطيع الانتظار ليوم السبت.

كان هناك حظر على الأكل والشراب في المكتبة فانتظرت حتى انتهيت من الآيس كريم قبل زيارتي للآنسة موور. عندما تركت المكتبة ويداي محملتان بكتب عن بتسي وإيدي وبتسي وتيسي، وللحظة فكرت كيف أن بتسي مكرودر محظوظة باسمها.

لم أستطع أن أتذكر أي شخصية روائية تسمى هاتي. كنت أسير مسرعة في طريق جرانت مع كتبي عندما شاهدت أحدهم واقفًا في الشرفة الأمامية وهو يلوح بشدة؛ كان آدم.

صاح آدم: «هاتي! هوه، هوه!».

أجبت: «أهلاً يا آدم» وكنت على وشك أن أقول: ماذا تفعل هنا؟ وعندما أدركت أن ذلك يبدو فظًا قلت: «أين جدتي؟ هل جاءت معك؟».

«جدتي، جدتي. لا، لا، لا. لقد جئت بمفردي، بمفردي. حقًا؛ جئت لأمشي قليلاً ولأرى الآنسة آنجيل فالنتين الجميلة. هل هي هنا؟».

«آنجيل؟ لا، إنها في العمل. إنها تعمل في بنك.. ألا تتذكر؟».

«آه! بلى، بلى، مثل الصراف في (أنا أحب لوسي). ما هذا الذي معك يا هاتي؟ ما كل هذا؟».

«لقد كنت في المكتبة» كنت أُري آدم الكتب عندما سمعت رنين الهاتف. صحت: سوف أرد مع أنني لم أشعر بالترقب. في حين أنه نادرًا ما كان أحد يتحدث إليَّ إلا إذا كانت بتسي موجودة. قلت لآدم: «سوف أعود حالاً».

ذهبت مسرعة إلى الداخل ورفعت سماعة الهاتف، سمعت جدتي تقول: «هاتي! هل آدم عندك؟» كانت تلهث وهي تتكلم.

«نعم، إنه...».

«الحمد للّـه!».

سألت: «ألم تكوني تعلمين أنه هنا؟».

«نعم! فلقد غادر دون أن يبلغني. لم أكن حتى متأكدة إذا كان يعرف الطريق إلى منزلكم».

«حسنًا، إنه هنا. لا أعرف منذ متى وهو هنا، لقد كنت في البلدة وعندما عدت وجدته في الشرفة، هل أستطيع أن أكلمه من فضلك؟».

آه! نبرة صوت جدتي جعلتني أتذكر منظر آدم وهو يضع أصبعه في الكوب.

ناديت آدم ليكلمها، واستمعت إلى الحديث من طرفه «نعم.. نعم.. حسنًا.. لكني أعرف الطريق جيدًا، جيدًا».

كانت نبرته هادئة ثم صاح: «ليس واجبًا عليَّ أن أُعلمِك بكل شيء.. لا، لن أعود إلى البيت! ليس الآن، لا وهاتي على وشك أن تُريني كتبها.. لست طفلاً يا أمي!».

حاول آدم أن يلقي بالهاتف على الأرض، لكن طول السلك لم يمكِّنه من ذلك. تركه معلقًا ثم صفَق الباب في طريقه إلى الخارج، التقطت السماعة وقلت: «جدتي، كنت أفكر هل يستطيع آدم أن يمكث معنا لبعض الوقت؟ سوف نتناول الغداء وبعدها أستطيع أن أسير معه إلى المنزل».

«حسنًا».. قالتها وهي تصحبها بتنهيدة استسلام. لكني شعرت بشيء آخر مصاحب لتلك التنهيدة أو ربما ببعض الراحة النفسية.

وتناول آدم الغداء معنا في هذا اليوم. شعر بخيبة الأمل عندما علم أن آنجيل فالنتين لا تأتي لتناول الغداء في البنسيون، ولكنه استعاد مرحه وبدا عليه الاستمتاع بصحبتي أنا وأمي وأبي والآنسة هاجرتي والسيد بني.

بعد وجبة الغداء جلست أنا وآدم على الشرفة، وهناك أصبح آدم جادًا وبدت عليه أمارات التفكير العميق. كانت حالات آدم المزاجية مثل مجموعة كاملة من ورق اللعب، يقوم أحدهما بخلطها بسرعة - عشرات من الأوراق، واحدة تلو الأخرى تُكوِّن صورة مبهمة عند اختلاف الأمزجة.

قال آدم بعد فترة وكان يتأمل طريق جرانت: «إن العالم كله يمر ببيتكم يا هاتي».

«أعرف؛ ولذلك فأنا أكره الشرفة الأمامية أحيانًا»، نظر إليَّ آدم بحدة فقلت: «أعني أنني لا أكره الشرفة تمامًا».

رد آدم: «تستطيعين أن تكرهي شرفتكم».

«حسنًا؛ لأنني أحيانًا أكرهها فعلاً».

أخذ آدم ينظر إليَّ منتظرًا أن أستطرد كلامي، قلت: «في بعض الأحيان أشعر أنني لا أنتمي إلى أي مكان في هذا العالم؛ أعني العالم الخارجي». وقلت له وأنا أشير إلى جرانت: «يسير الناس ذهابًا وإيابًا أمام المنزل ويقودون السيارات والدراجات عليه، حتى الناس الذين أعرفهم كأنهم يأتون من

كوكب آخر، وأنا مجرد غريبة في زيارة مؤقتة».

واسترسل آدم قائلاً: «والغرباء لا ينتمون إلى أي مكان إلا في أماكنهم الصغيرة في الكون».

telegram: @mbooks90

أجبت: «هذا صحيح».

بعد ذلك بدا آدم سعيدًا وأنا أسير معه إلى بيته، تأبط ذراعي وأخذ يغني: «الفرس يأكل الشعير والغزال يأكل الشعير والخراف الصغيرة تأكل اللبلاب»، ثم توقف عن الغناء وقال: «لقد قلت لي سرًّا من أسرارك يا هاتي وقريبًا سأفضي إليك بسرٍّ من أسراري».. فتح آدم الباب واختفى في الظلام البارد داخل بيت جدي وجدتي.

الفصل الثامن

في يوم الثلاثاء كنت على وشك أن أنطلق إلى البلدة عندما رأيته يسير على ممر منزلنا وهو يصفّر. صاح آدم: «هاتي! هاتي! أتمنى لك صباحًا رائعًا».

ذهب خلسة إلى الداخل واتصلت بجدتي لأبلغها بوجوده. كانت ممتنة، لكنها لم تطلب مخاطبته هذه المرة.

عندما عدت إلى الشرفة قال آدم: «هل آنجيل هنا؟ هل آنجيل فالنتين في المنزل؟».

«لا، إنها في البنك»، فقلت مذكرة إياه: «في عملها»، ثم أدركت أن آدم ربما لا يعرف الكثير عن معنى الوظيفة، فأضفت: «إنها تغادر المنزل كل صباح قبل الساعة التاسعة وتعود إليه ظهرًا بعد الساعة الخامسة بقليل».. تذمر آدم ولكن لم يبد عليه الانزعاج الشديد، وقال:

«حسنًا، لقد تأكدت أنكم على ما يرام. يجب أن أستأنف طريقي إذن، مع السلامة».

«انتظر يا آدم.. إلى أين أنت ذاهب؟».

أجاب آدم: «إلى المنزل»، وانطلق في طريق جرانت.. تتبعتُه على طول الطريق حتى منزل جدي وجدتي كالجواسيس؛ حتى أتأكد أنه لن يتصرف تصرفًا غريبًا وهو يسير عبر البلدة، ثم انطلقت إلى البيت لأتصل بجدتي وحكيتُ لها ما حدث وكيف أن آدم يعرف الطريق إلى البيت جيدًا.

كنت أشعر أنني بمثابة أخت صغيرة له وأحيانًا بمثابة أمه، وفي معظم الأحيان صديقته، ولم أشعر قطُّ أنه خالي.

في اليوم التالي، جاء آدم إلى المنزل في الساعة الخامسة وخمس دقائق بالضبط (لم أهتم هذه المرة بالاتصال بجدتي) وبعد ذلك بعشر دقائق في أثناء مراقبتنا أنا وآدم للآنسة هاجرتي وهي تحرك إبر التريكو بسرعة ظهرت آنجيل فالنتين على الممر.

هبَّ آدم واقفًا بسرعة البرق: «آه! آنجيل فالنتين، طابَ مساؤك جدًّا، كيف كان يومك في البنك؟».

ارتمت آنجيل على المقعد وهي تحرك الهواء بيديها لتنتعش: «كان يومًا لا بأس به يا آدم. لكنه مليء بالأشغال.. شكرًا لك».

لم يستطع آدم أن يبعد نظره عنها. لقد أخذتُ أراقبه وهو يحوم بنظره من وجهها إلى قدميها، ثم إلى أعلى ليستقر على صدرها. كانت الآنسة هاجرتي منشغلة بأشغال التريكو الخاصة بها وآنجيل قد أغمضت عينيها برهة؛

لذلك كنت أنا الوحيدة التي تراقب آدم، والذي بدوره يراقب آنجيل. أخذ يتحرك إلى الأمام والخلف في مكانه وهو يرمي بثقله من قدم إلى أخرى ويعصر في يديه ويحملق في صدرها.

فتحت آنجيل عينيها ورأت آدم؛ فانكمشت خوفًا، لكنها ابتسمت له ووقفت قائلة: «سوف أذهب لإعداد بعض الشاي المثلج قبل العشاء. هل يريد أحد بعضًا منه؟».

«أوه! أوه! سوف أساعدك.. سوف أساعدك في المطبخ يا آنجيل فالنتين.. حبيبتي، ماذا تفعلين الآن؟ إنك تمزجين البيض بالزيت والخل بالبيض، لماذا لا تضيفين بعض الأنشوجة لتعدّي سلطة سيزر؟».

أمسكت آنجيل بالباب حتى يمر آدم وسألت وهما يتواريان عن الأنظار في الردهة في طريقهما إلى المطبخ: «من أي حلقة في مسلسل (أنا أحب لوسي) جاءت هذه العبارة؟».

شعرت أن خديَّ يتضرجان بالحمرة وأنا أراقب آدم يسير بسرعة وراءها. كنت أعلم أنه كان ينتظر منذ أيام ليراها مرة أخرى. حاولت أن أقنع نفسي بأن كل شيء على ما يرام وأن آدم رجل راشد وآنجيل امرأة راشدة - امرأة راشدة وجميلة. لم يكن من الملائم بأي حال من الأحوال أن ينظر إليَّ كما نظر إلى آنجيل. فأنا أبلغ الحادية عشرة من عمري غير أنني طبعًا في المقام الأول ابنة أخته، لكن الاحمرار لم يذهب وأخذت أحملق بارتباك في طريق جرانت.

لا شيء يضاهي الإحساس بأن الآخرين يتجاهلونك.

حاولت يوم الخميس أن أُبعد تفكيري عن آدم.. ذهبت في رحلتي المعتادة إلى البلدة. رسمت مع أبي في الاستوديو الخاص به. استلقيت في الفراش وأخذت أقرأ أحد الكتب التي استعرتها من المكتبة. ساعدت كوكي في المطبخ.

وأخيرًا أدركت أنني أشتاق إلى آدم؛ ولذلك شعرت بسعادة غامرة عندما سمعت صوته وهو يصفِّر على ممر المنزل بعد ظهر ذلك اليوم. وخرجت مسرعة لأقابله.

قال آدم: «هوه هوه! مساء الخير يا هاتي». كان متأنقًا، يرتدي بدلة صيفية ضيقة مع ربطة عنق خضراء وقبعة سوداء كبيرة. أعتقد أنه يتوقع رؤية أنجيل مرة أخرى، لكنه لم يسأل عنها. وبدلاً من ذلك جلس على أحد مقاعد الشرفة ووضع رجلاً على رِجل، ونظر إليَّ بجدية وقال وكأنه في اجتماع عمل: «حسنًا، لقد أفضيت إليَّ بأحد أسرارك يا هاتي أوين؛ لذلك سوف أفضي إليك بأحد أسراري».

أجبت وأنا أحاول أن ألحق بآدم في تتابع أفكاره، وأحيانًا كنت أشعر أنه يبعد عني بأميال: «حسنًا».

«اذكري لي أي تاريخ يا هاتي.. أي تاريخ».

«تاريخ؟».

«نعم. شهر ويوم وسنة. السابع من يناير عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين مثلاً».

فكرت للحظة ثم قلت: «حسنًا، السادس عشر من سبتمبر عام ألف وتسعمائة وواحد وأربعين».

فقال آدم بلا تردد: «الثلاثاء».

«ماذا تعني؟».

«كان ذلك يوم ثلاثاء».

«كيف عرفت؟».

«أنا أعرف كل ذلك في رأسي».

«أواثق أنت أنك على حق؟».

«تمامًا.. بوسعك أن تتأكدي من التاريخ. أعطيني تاريخًا آخر، أي تاريخ تعرفينه».

حسنًا.. كنت أعرف اليوم الذي وُلِدت فيه كوكي، فأعطيته تاريخ ميلادها.

فقال آدم: «السبت».

«هذا صحيح!».

كان آدم يبتسم ابتسامة عريضة مثل تلك التي تُحفر على القرع في يوم الهالويين.

«أبوسعك حقًّا أن تفعل ذلك مع أي تاريخ؟».

«بالتأكيد».

«لماذا تحتفظ به سرًّا؟».

انحنى آدم إلى الأمام، وقال هامسًا: «لأن أمي تقول إن ذلك خدعة لا تليق إلا بالسيرك، وهي شيء محرج، لابد أن نحتفظ بها كسرٍّ للعائلة. في صدر العائلة، مع أن أمي لم تستخدم ذلك التعبير».

لا، فأنا لا أستطيع أن أتخيل جدتي تنطق بلفظ «صدر» في أي حال من الأحوال.

قال آدم وهو يستلقي إلى الوراء في المقعد ويبدو عليه الرضا: «ها هو السر».

لقد فاتني شيء فسألته: «ماذا تقول؟».

لم تعد نظرات آدم مستقرة. نظر إليَّ ثم بعيدًا ثم إليَّ مرة أخرى، وكان كل ما قاله: « مكاني الصغير في الكون».

وفي صباح يوم الجمعة كنت في طريقي إلى حجرة الآنسة هاجرتي وأنا أحمل صينية الإفطار، وعندما توقفت عند الباب الأمامي كانت نشرة الأخبار الجوية تنبئ بسقوط أمطار، لكنني لم أشاهد سحابة واحدة.

لكن الشيء الذي رأيته فعلاً وكاد يجعلني أُسقط الصينية من يدي هو آدم؛ فقد كان يسير في طربٍ على طريق جرانت وهو يرتدي بنطال البيچاما فقط، بلا قميص أو حذاء.

أخذ قلبي يخفق بشدة، وأخذت نفسًا عميقًا ثم وضعت الصينية على الأرض وهرعت إلى الخارج مسرعة عبر الممر. كان آدم قد عبر أمام منزلنا فاستدرت يمينًا وأنا أنادي: «آدم! آدم!».

توقف آدم واستدار: «هوه، هوه! صباح جميل لك يا هاتي أوين! صباح خير كثير، صباح جميل لأن نكون فيه أحياء. أحياء أحياء. أوه أحياء، أحياء، آه! بلح البحر والقواقع أحياء، أحياء، أوه! هل تعرفين تلك الأغنية يا هاتي؟» كان آدم يبتسم ابتسامة عريضة تكاد تقسم وجهه. كان في أفضل حالة رأيته فيها.

لحقت به حتى أمسكت بيديه: «آدم، إلى أين أنت ذاهب؟».

«إلى أين أنا ذاهب؟ تسألين إلى أين أنا ذاهب؟ أنا في طريقي إلى سيرك الحياة، سيرك الحياة يا هاتي، وسأحظى بشرف وسعادة كبيرين إذا وافقتِ أن تصاحبيني. سوف أكون سعيدًا جدًّا».

لم يبطئ آدم من سيره بل واصل السير باتجاه البلدة بسرعة شديدة لدرجة أنني اضطررت إلى العدْو حتى ألحق به. كيف أستطيع أن أرجعه؟ لابد أن يأتي معي، سوف أرجع به إلى جدي وجدتي، ولكني لا أعرف كيف.

كنت أخاف أن أتسبب في استثارته.

أخذت أفكر فيما قاله عن سيرك الحياة هل رأى ملصقات الكرنڤال؟ هل هذا هو ما يتكلم عنه؟

قلت له: «أنا أريد فعلاً أن أذهب معك إلى السيرك يا آدم، لكنه لم يصل إلى البلدة بعد. أقصد الكرنڤال لن يصل قبل الغد. كرنڤال فريد كارميل للمرح».

«آه نعم، نعم. فريد كارميل الشهير وكرنڤال المرح.. مرح، مرح، مرح لكل الناس».

«هيا بنا نرجع إذن. نستطيع الذهاب الأسبوع المقبل».

توقفت وأنا أمسك ذراعه. وللحظة شعرت منه ببعض المقاومة، وفكرت ماذا سأفعل لو لم يأتِ معي؟ ماذا سيفعل آدم لو ثار؟

لكن ما حدث هو أن آدم استدار فجأة وسرنا في اتجاه المنزل. بدأ آدم يبطئ من سيره وأخذنا نسير الهوينى مثل أي زوجين طاعنين في السن أثناء نزهتهما الصباحية؛ الفرق الوحيد أن أحدهما كان يرتدي بنطال البيچاما فقط.

مررنا بمنزلنا وسألت نفسي إن كان يتوجَّب عليَّ أن أدخل لأوقظ أمي وأبي أو حتى أتناول صينية الإفطار من على الأرض ولكن لم أرد أن أزعج آدم.

من الأفضل أن أعود به إلى جدي وجدتي.

فسرنا معًا يدي في يده بهدوء.

وخطر ببالي أننا سوف نمر بمنزل نانسي ثم جانيت، حسنًا سوف أدعو الله أن تكونا لا تزالان نائمتين داخل المنزل.

لكن دعوتي لم تُستجب؛ لأنه في اللحظة التي مررت فيها أنا وآدم أمام منزل نانسي فُتِح باب المنزل وخرجت نانسي وهي تجري وراء أخيها الصغير، وأخذت تطارده في الحديقة، وعندما أصبحت على مسافة عشرة أقدام منا رأتنا، وعند ذلك وقفت فجأة وأخذت تنظر بدهشة.

«حسنًا.. صباح الخير، صديقة هاتي» قال آدم: «الصديقة التي لا تريد عصير الليمون. الصديقة ذات الأخ الصغير». حياها ثم استأنف قائلاً: «هل تحبين أن تأتي إلى البيت معنا لتأكلي نقانق منزلية لذيذة».

كان فم نانسي لا يزال مفتوحًا عندما قالت: «لا».

كانت «لا» صريحة بلا أي إضافات.

أعرف أن شكل آدم غريب، ولكنها كانت تستطيع على الأقل أن تكون أكثر تهذيبًا.

انصرف آدم مجروحًا.

ثم سمعت آنجيل تتمتم: «أيها المعتوه الكبير!».. تركت يد آدم واستدرت وقلت لها: «هيه! أطبقي فمك»؛ لم أكن موهوبة في الرد على الإهانات.

لم يكن ذلك مؤثرًا، ولكن بما أن نانسي لم تسمعني قبل ذلك أنبس ببنت شفة طوال معرفتنا ببعضنا البعض نظرت إليَّ بدهشة وسكتت.

قلت: «هيا يا آدم».

أخذنا نسير في سكون ولم نلتقِ جانيت في طريقنا وعندما وصلنا إلى منزل جدي وجدتي رأيت الدموع تسيل على خد آدم. قرعت جرس الباب وقلبي يخفق.

ظهرت إيرمالين التي ذهبت للبحث عن جدتي. بسرعة، قصت علينا جدتي ما حدث. وعلى الرغم من أن آدم كان لا يزال يبكي في صمت فإنها قالت له: «اذهب الآن إلى أعلى وارتدِ ملابس لائقة» كانت تبدو مصدومة أكثر منها غاضبة.

اتجه آدم ناحية الدرج وعندما توارى عن الأنظار قلت: «نانسي أونيل قالت له إنه معتوه كبير، وقد سمعها».

وقفت جدتي أمامي باستقامة وهيئة رائعة، لم يتحرك شيء في وجهها. إذا أهان أحدهم آدم فقد أهان جدتي. كنت أستطيع قراءة عينيها مثل الكتاب. فجدتي التي هي واحدة من أغنى أغنياء ميلرتون كانت تتوقع عائلة مثالية، عائلة ينطبق عليها المُثُل الرفيعة التي وضعها أبوها، لكن أولادها خذلوها؛ وهو ما يعني أن جدتي فشلت.

قلت لها: «لابد أن أذهب، وتركتها لتناول الإفطار مع أسرتي، وحاولت أن أنسى دموع آدم الصامتة».

الفصل التاسع

استيقظت في صباح السبت وأنا أشعر بالسعادة.

فاليوم سوف يصل كرنڤال فريد كارميل. وآدم لن يراه، فجدي وجدتي سوف يصحبانه اليوم في رحلة إلى فلادلفيا لشراء ملابس جديدة له. كنت أشعر بالأسف لأن آدم لن يرى الموكب. ولكن في الوقت نفسه كنت سعيدة؛ لأن جدتي لاحظت أن ملابسه صغيرة عليه. سألت نفسي عمن كان يشتري لآدم ملابسه وهو في المدرسة. ربما أن جدتي لم تهتم بمظهره ما دام بعيدًا عنها. ثم أقول لنفسي لا يصح أن أسيء الظن بجدتي.

قالت كوكي أثناء مساعدتي لها في المطبخ بعد الإفطار: «تخيلي أن يمر موكب من أمام المنزل يا هاتي!».

كنا نرتدي مئزرين (وضعتهما لنا الآنسة هاجرتي) وقد عقصت كوكي شعرها في شبكة. وكانت قد أنزلت جوربها إلى ما تحت الركبة ولم يكن بالمنظر الجميل، لكن كوكي كانت تتصبب عرقًا وتحرك الهواء

بيديها وتقول وهي تقسم بالله إن الجوارب المتدلية تجعلها تشعر أن الحرارة أقل بعشر درجات.

أخذت أفكر في ملصقات فريد كارميل. كان بعض منها يعلن أنه عندما يصل الكرنڤال سيكون هناك موكب من العربات والمركبات والمقطورات يعبر البلدة حتى مكان الكرنڤال. سوف يبدأ الموكب في شارع ناسو ثم يتحول إلى طريق جرانت حتى يصل إلى الجهة الأخرى من ميلرتون.

سألت كوكي: «مع من سوف تتفرجين على الموكب؟».

«حسنًا.. مع أبي، أمي، السيد بني، الآنسة هاجرتي، آنجيل لو كانت هنا، وأنتِ لو كنتِ تريدين رؤيته، فلن يكون هناك أحد في مثل سنك».

عقدت ذراعين وقلت أذكّرها: «بتسي في ماي».

«هل بتسي هي الوحيدة في ميلرتون التي تبلغ الحادية عشرة من عمرها؟».

«لا».

ابتسمت كوكي وهي تفتح ذراعيها، ابتعدت عنها. تنهدت وقالت: «يا حبيبتي!».

«حسنًا، تبدين كأمي».

«أمك تريد أن يكون لكِ أصدقاء».

«إن لي أصدقاء».

«في مثل سنك؟».

«ما أهمية أن يكونوا في مثل سني؟».

تنهدت كوكي مرة أخرى وقالت: «أظن أنه أمر غير ذي بال».

كنا نخبز الكعك وكنت أملأ وعاء الكعك بالعجين وأخذنا نعمل في صمت لعدة دقائق، ثم فكرت في أنني لا أريد أن تظن كوكي أني غاضبة منها، فقلت لها: «هل ستشاهدين الموكب معنا؟»، فأجابت: «لعدة دقائق بما يكفي لأرى نجوم العرض».

لم تكن الساعة قد بلغت العاشرة عندما سمعت صيحات وصوت رئيس الموسيقى. عدوت إلى الشرفة لأنظر إلى الشارع فرأيت صفًّا طويلاً من العربات والمركبات وهي تتحرك ببطء. انطلقت إلى الداخل مرة أخرى، صحت: «إنه هنا. الموكب قد جاء».

جاء الجميع مسرعين إلى الشرفة وجلسوا على المقاعد التي خصصتها لهم أمام السور. كانت الآنسة هاجرتي سعيدة للغاية، فأخذت تضغط على يدي.

كانت أول عربة في الموكب تشبه مركبة السيرك، وعليها حروف حمراء محددة بالذهب تعلن عن كرنڤال فريد كارميل للمرح. وكانت هناك شابتان مرتديتان ملابس مزركشة تجلسان في المركبة وتلوحان لنا (الآنسة هاجرتي أخذت تلوح لهما). كانت الموسيقى تنبعث من مكان ما داخل العربة، ثم جاءت بعد ذلك عدة مقطورات بداخلها الحيوانات، ثم خيول صغيرة تقودها امرأة في الكرنڤال بثياب مزركشة.

صاحت كوكي فجأة: «آه! ها هم».

سألت آنجيل: «من؟».

«أبطال العرض الجانبي».

كانت المقطورات الباقية بمثابة دعاية للعرض الجانبي، كل عربة كانت تعلن عن أحد العروض الجانبية؛ الرجل ذي الألف وشم، «مونجو» رجل الغابة، جون جين نصف الرجل ونصف المرأة، المرأة المطاطية والرجل الغريب، ولكن كل هؤلاء كانوا داخل المقطورات الخاصة بهم - كل ما رأيناه هو الدعاية الخاصة بهم.

قامت كوكي وهي تهز رأسها ببطء وقالت وهي في طريقها إلى المطبخ: «ياه! لابد أن أذهب لأرى تلك العروض الجانبية».

أخذت أنظر لبقية المركبات وهي تزحف ببطء على الطريق، لكني لم أعرها اهتمامًا كبيرًا. كنت أفكر في مونجو وجون جين والمرأة المطاطية. لابد أن أعترف بأنني كنت مفتونة بتلك الصور على جانب المركبات. لكنَّ جزءًا مني أحس بعدم الارتياح. لو كان شكلي غريبًا أو أمتلك موهبة غريبة فهل كنت سأرغب في أن أقضي حياتي ليتفرج عليَّ كل من يدفع ربع دولار؟ بالتأكيد لا. ومع ذلك، كان الفضول يتملكني خاصة فيما يخص جون جين، وأخيرًا قررت أن يتملكني الفضول بنسبة 85٪ وعدم الارتياح بنسبة 15٪.

شعرت بسعادة بالغة بعد انتهاء الموكب، وحاولت أن أتذكر كم معي من نقود. أظن أن هناك خمسة وأربعين سنتًا في الطبق الموجود على مكتبي وخمسة دولارات في جيب الچينز في ثالث درج. عظيم! لديَّ ما يكفي للألعاب وغزل البنات وأي عروض أخرى.

قال أبي: «حسنًا هاتي، ما رأيك؟ هل نذهب إلى الكرنڤال مساء الإثنين القادم؟».

صحت: «مساء الإثنين؟ أول ليلة؟ أوه! نعم».

في ذلك المساء سرت أنا وأبي بعد العشاء على طريق جرانت حتى وصلنا إلى الجانب الآخر من البلدة لنشاهد ما يفعله فريد كارميل وعماله. كانت الساحة الجرداء قد تغيرت تمامًا؛ أقيمت المراجيح والخيام والأكشاك والكبائن.

قالت فتاة في مثل عمري وهي تخرج من إحدى المقطورات:

«الافتتاح الكبير سيكون ليلة الإثنين».

أجاب أبي: «سنكون هناك».

كان الكرنڤال أكبر حدث شهدته ميلرتون منذ أعوام، اكتشفت أن كل فرد في منزلنا سوف يأتي الافتتاح الكبير. لم تستطع أمي أن تقرر ما إذا كان من الأفضل التبكير نصف ساعة في موعد عشاء الإثنين؛ حتى يكون هناك وقت إضافي لنا في الكرنڤال أو أن تؤخر ميعاد العشاء لنصف ساعة؛ حتى يتسنى للجميع أن يعدوا له، وأخيرًا قررت عدم تغيير الميعاد.

جلسنا نحن الستة إلى طاولة العشاء وأخذنا نثرثر بخصوص الأشياء التي سوف نراها ونفعلها في كرنڤال فريد كارميل وإلى متى سوف نسهر. قالت أمي: «لا تأكلي كثيرًا عند العشاء يا هاتي.. احتفظي بمكان في بطنك لغزل البنات».

أضفت: «ولأكلات الشعوب المختلفة». ثم سألت: «هل نستطيع أن نصطحب آدم معنا؟» كنت تقريبًا واثقة أنه لن يذهب مع جدي وجدتي؛ فالكرنڤال مثله مثل السيرك ليس مناسبًا لهم اجتماعيًّا.

قالت أمي: «أوه! حبيبتي.. لنذهب بمفردنا نحن الثلاثة، فأنا لا أريد أن أتصل بجدتك الآن».

قلت: «سوف أتصل أنا بها».

تنهدت أمي: «هاتي، لا تلحي».

«حسنًا». لم أكن أريد أن نتناقش بصوت مسموع.. لكنني كنت أفهم مغزى هذا الموقف؛ كانت أمي لا ترغب أن تعرف جدتي أننا سعداء بالكرنفال شأننا شأن عامة الناس في ميلرتون الذين يتسابقون لرؤية النساء الملتحيات والألعاب والجوائز الرخيصة والأضواء المتلألئة.

حسنًا. لن أجعل ذلك الأمر يفسد علينا الأمسية.

في اللحظة التي انتهى فيها العشاء انطلقت الآنسة هاجرتي إلى الشرفة الأمامية وبعد دقيقتين جاءت السيارة الكرايزلر البنية اللون. جلست صديقتا الآنسة هاجرتي بجانب بعضهما البعض في المقعد الأمامي وأخذتا تلوحان لها من النوافذ، كانتا تلبسان قبعتيْن من القش مزينتين بالورد الصناعي.

صاحتا فيها: «يوو - هوه!».

أجابت الآنسة هاجرتي: «هالو! سوف نجيء حالاً»، استدارت ونادت من الباب الأمامي: «فرانك»، وظهر السيد بني.

هرع هو والآنسة هاجرتي على الممر معًا ودخلا السيارة. عندما كنت صغيرة كنت أعتقد أن السيد بني والآنسة هاجرتي مخطوبان وأنهما سيتزوجان وسوف أحمل الزهور في يوم زفافهما، أما الآن فأصبحت تقريبًا متيقنة أنه لا أحد منهما مقدر له أن يتزوج.. وهكذا الحال لبعض الناس.

لحظات بعد أن اختفت السيارة الكرايزلر، توقفت سيارة حمراء جذابة ذات سقف مسدل مزمجرة على الممر، خرج منها شاب يبتسم، يشبه إلى حدٍّ كبير المطرب النجم فرانكي أڤالون، من دون أن يهتم بفتح الباب حيث قفز من السيارة إلى الشارع مباشرة، أخذت أنظر إليه فاغرة الفاه وهو يسير حتى يصل إلى الجانب الآخر ويقف عاقدًا ذراعيه وهو يستند إلى السيارة، لم أره قبل ذلك لكني عرفت أنه جاء ليصطحب آنجيل فالنتين. وبعد ذلك بلحظات جاءت آنجيل إلى الشرفة وكالنسيم تفوح منها روائح الورد.

قالت: «إلى اللقاء يا هاتي! أتمنى أن تسعدي بوقتك الليلة».

حيا فرانك أڤالون آنجيل بقبلة سريعة على خدها، ثم فتح لها باب السيارة، بعد دقائق انطلقت السيارة تهرع إلى الكرنڤال.

كانت تلك لحظة من اللحظات التي أعشق فيها الشرفة؛ كان الجلوس فيها أفضل في بعض الأحيان من الذهاب إلى السينما.

سرت أنا وأمي وأبي إلى الكرنڤال، كنت أحس بالإثارة لدرجة أني لم أمانع في أن أمسك يديهما رغم أننا في مكان عام. أخذت أسير ويدي اليمنى في يد أمي ويدي اليسرى في يد أبي وأنا أستمع إلى هدوء صوتيهما فوق رأسي. كنت قد نسيت موضوع أمي وجدتي ومظاهر جدتي الكاذبة لكنني لم أنس آدم. كنت لا أزال أتمنى وجوده معنا.

كنت أستطيع أن أسمع صخب الكرنڤال قبل أن أراه.. كنت أسمع الموسيقى، الضحك وهمهمة الأصوات الهادئة. وعندما عبرنا ساحة السيارات الواقفة كنت أستطيع أن أرى أن كل ركن من الكرنڤال

كان محاطًا بالأضواء. كان يشبه شارع ناسو في شهر ديسمبر عندما تتألق نوافذ المتاجر وأكاليل الزهور والأعمدة بالأضواء احتفالاً بعيد الميلاد.

وقفت على أطراف أصابعي؛ حتى أرى جيدًا؛ فرأيت عجلة متحركة من الأضواء؛ كانت تلك هي الساقية؛ وطريقًا ضيقًا من الأضواء في المنتصف؛ كان ذلك هو العرض الجانبي، كما رأيت ساحة متلألئة من العربات المتراطمة، وأخرى للقطار المتعرج، وثالثة للدوامة.

كان أبي وأمي في مثل سعادتي تمامًا.. قالت أمي وهي تجذب يدي: «هيا!»، وأخذ ثلاثتنا يجري عبر ساحة الانتظار لمدخل الكرنڤال وهناك لم نعرف من أين نبدأ؛ هل بالطعام أم الألعاب أم العروض الجانبية؟ ولذلك رحنا نتجول لفترة في المكان وفجأة كانت الكاميرا أمام وجه أبي، وقال لي ولأمي:

«حسنًا يا سيداتي، قفا هناك ولوحا بيديكما».

وقفنا أمام بيت المرح وأخذنا نلوح في طاعة لأبي..

قال: «والآن لنأخذ لكما صورة وأنتما تركبان الساقية»، وبدأت أمسية الكرنڤال.. عندما هبطنا من لعبة الساقية ذهبنا إلى بيت المرح ثم اشترينا غزل البنات، ثم دفعت أربعة دولارات لألعب ست ألعاب مختلفة حتى كسبت دمية عبارة عن دب وردي صغير.

وعندما وقفنا في الصف لنشتري تذاكر للعروض الجانبية اكتشفت أن الفتاة التي أخذت منا النقود كانت هي نفس الفتاة التي قابلتها أنا وأبي ليلة السبت الماضي.

همست لأبي وأنا غير مصدقة: «إنها تعمل هنا».

كنت لا أزال 85٪ مفتونة و15٪ غير مرتاحة لفكرة مشاهدة العرض الجانبي. لكن عندما رأيت تقريبًا نصف العروض أصبحتُ 15٪ غير مرتاحة و45٪ مفتونة و40٪ أشعر بخيبة أمل. بعض شخصيات الكرنڤال قدمت عروضًا أقل جاذبية بكثير عما قُدم لها من دعاية. على سبيل المثال، المرأة ذات الاسم شديد الإحراج، السيدة الخنزيرة، والتي وُصِفتْ بأنها أكثر نساء العالم بدانة؛ لم تكن أكثر بدانة من السيدة فينش التي تمتلك مسرح جاردن. وجون جين، نصف الرجل ونصف المرأة، كان يبدو لي رجلاً حقيقيًّا، وكل ما فعله أنه أطال جانبًا واحدًا من شعره وحشا جانبًا من صدره بفوط اليد الصغيرة بنفس الطريقة التي كنت أنا وبتسي نتبعها لنرى كيف سنبدو حين نكبر (طبعًا كنا نحشو الجانبين)، أما المرأة المطاطية فهي لم تستطع أن تربط نفسها في عُقد كما تصورت مع أن مقدرتها على أن تلف أرجلها حول عنقها تدعو للإعجاب.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما نظرت أمي في ساعة يدها وقالت: «كنت أود ألا أقول ذلك ولكن يجب أن نفكر في العودة؛ فلقد أصبح الوقت متأخرًا جدًّا».

سألت: «هل نستطيع أن نركب الساقية مرة أخرى فقط؟».

تبادل أبي وأمي النظرات ثم قالت أمي: «ولمَ لا؟».

وركبنا الساقية وأخذنا نشاهد الكرنڤال وهو يبتعد عنا تارة ثم يقترب تارة، وهكذا أكثر من مرة.

وعندما هبطنا نهائيًّا، مرهقين وسعداء وإلى حد ما نشعر بدُوَار، شاهدت الفتاة مرة أخرى؛ تلك الفتاة التي أخذت منا التذاكر عند العروض الجانبية.

صاحت وراءنا: «آملُ أن تكونوا قد استمتعتم باللعبة.. تعالوا مرة أخرى».

وعندما استدرت لوحت لي فلوحت لها.

الفصل العاشر

لا تعرف أبدًا متى يمكن أن تحصل على صديق جديد؛ فمن الممكن أن يحدث ذلك في وقت لا تتوقعه على الإطلاق. فأنا وبتسي أصبحنا صديقتين في الحضانة عندما بدلت الآنسة كوشيل الأماكن وجاء مقعدي بجانب بتسي.

دخل آدم في حياتي فجأة دون سابق إنذار، وبشكل ما استطاع أن يفهم معنى أن يشعر الإنسان بالغربة وأن يكون متفرجًا في الشرفات ثم ائتمنني على سرّه.

telegram: @mbooks90

لكن ليلا كانت من أكثر الصديقات اللاتي لم أتوقع أن أصادقهن على الإطلاق؛ فهي لم تكن موجودة في حياتي من قبل، لم تكن معي في الحضانة، ولم تكن من الأقارب المجهولين.. كانت مجرد فتاة تسافر مع الكرنڤال الذي تصادف أن جاء إلى البلدة.

في الليلة التي ذهبت فيها أنا وأمي وأبي إلى افتتاح كرنڤال فريد كارميل، عدت إلى المنزل مرهقة ومع ذلك لم أتمكن من النوم، استلقيت

في فراشي وأنا أفكر في السيدة الخنزيرة وجون جين والمرأة المطاطية، ثم تذكرت الفتاة ذات العينين البنيتيْن الداكنتيْن التي أخذت منا التذاكر، وتمنت أن نستمتع باللعبة ثم دعتنا لأن نأتي مرة أخرى، كنت لا أزال أفكر فيها الصباح التالي وأنا في طريقي إلى رحلتي المعتادة إلى البلدة. لم أبتعد عن دار عرض السينما عندما رأيت ملصقًا من ملصقات الكرنڤال وفي لمح البصر استدرت واتجهت ناحية ميلرتون إلى أرض الكرنڤال.

كان الكرنڤال في ضوء النهار ممتعًا، لكن ليس بجمال منظره ليلًا عندما يتلألأ بالأنوار وأي شيء يمكن أن يحدث. أخذت أسير في منتصف الطريق ثم عند أكشاك الأكل وأنا أحرك العملات الصغيرة في جيبي وأشعر بأشعة الشمس الحارقة على كتفي.

لم أستطع أن أتمالك نفسي وبعد خمس عشرة دقيقة تمامًا كنت أقف عند مدخل العرض الجانبي مرة أخرى وأخذت أتأمل الإعلانات وأنظر إلى صور جون جين والسيدة الخنزيرة، سمعت امرأة بجانبي تقول: «هيا نذهب لنتفرج على عرض العجائب من البشر الآن»، وجذبت يد رجل ووقفا في الصف ليشتريا تذكرتين. اختلست النظر إلى كشك التذاكر ورأيت الفتاة مرة أخرى؛ كانت منشغلة بإعطاء الزبائن باقي النقود. كان معي ما يكفي لشراء تذكرة لكني قررت عدم الدخول؛ لقد تذكرت آدم يوم اصطحبته إلى المنزل وهو يرتدي سروال البيچامة والنظرة التي كانت في عينيه عندما دعته نانسي بالمعتوه الكبير.

وبدلاً من التذكرة اشتريت نقانق، ورجعت إلى المنزل، وفي اليوم التالي عندما حان وقت رحلتي ذهبت مباشرة إلى كرنڤال فريد كارميل. هذه

المرة تجنبت الذهاب إلى العرض الجانبي، كان معي دولار في جيبي وربما أستطيع أن أفوز بجائزة أخرى. كنت قد أنفقت ثمانين سنتاً وكانت أعصابي مشدودة وأنا أحاول أن أصوب في لعبة رمي الحلقات عندما ظهرت الفتاة. مرت من وراء المنضدة وهمست في أذن الرجل الذي أخذ النقود مني فأعطاها بعضًا من العملات الصغيرة فشاركته، كانت على وشك الذهاب عندما رأتني وأنا أرمي الحلقات، لوحت لي بخجل فلوحت لها ثم غادرت المكان مسرعة.

اندفعت يوم الخميس مباشرة إلى الكرنڤال بعد أن أنجزت كل المهام المنزلية الخاصة بي. عند مروري ببيت جدي وجدتي فكرت في التوقف ودعوة آدم ليأتي معي إلى الكرنڤال، لكنني لم أتحمل مسئولية آدم بمفردي إلا عند توصيله إلى المنزل ولم أكن واثقة أنني أستطيع تحمل تلك المسئولية. وهناك أيضًا احتمال أن ترفض جدتي الفكرة ويصاب آدم بنوبة غضب فجائية. فقررت أن أنتظر لوقت آخر.

عندما وصلت إلى كرنڤال فريد كارميل ذهبت أبحث مباشرة عن الفتاة. رأيتها عند شباك تذاكر لعبة الساقية، وعندما شاهدتني ابتسمت وقالت: «هل تستطيعين أن تنتظري لدقيقة؟». فأجبتها وأنا أشعر بضربات قلبي تتسارع: «حسنًا». كان هناك ستة أفراد في الصف، عندما باعت لهم التذاكر تكلمت الفتاة مع الرجل الذي يدير الساقية ثم خلعت المئزر ورمت به في كشك التذاكر وهرعت إلى جواري.

قالت: «أهلاً».

أجبت: «أهلًا».

ثم أومأت برأسها ناحية الساقية: «هل تريدين الركوب؟».

فهززت رأسي: «ليس معي ما يكفي من النقود».

«إني أراكِ هنا يوميًّا».

أجبت: «هذا أول كرنڤال يأتي إلى ميلرتون. أقصد أول كرنڤال أتذكره».

كنا نقف هناك نحن الاثنتان مرتديتين سروالين قصيرين وقميصين وصندليْن.. كان يومًا شديد الحرارة وكنت أشعر بالعرق وهو يتصبب على جانبي وجهي ويسيل بجانب ضفائري. أما الفتاة التي تدلى شعرها الأسود الغزير إلى وسطها فكانت تحرك الهواء بأحد ملصقات الكرنڤال.

سألتها: «هل تعملين هنا؟».

أشارت عبر كتفيها: «كل أسرتي تعمل هنا.. أبي هو المسئول عن إدارة الساقية، وأمي في العروض الجانبية».

«حقًّا؟».

كنت أفكر هل تديره أم هي جزء منه؟ لم أكن أعرف إذا كان ذلك شيئًا مسليًا أم مفزعًا. فلم أكن في الواقع أريد أن أكتشف أن أمها هي جون جين على سبيل المثال. على الجانب الآخر، لو أن أمها جون جين فمن الممكن أن أعرف حقيقة الشعر والملابس التي تجمع بين الجنسين.

قالت الفتاة: «نعم، هي المرأة المطاطية» ولم يبدُ عليها الإحراج وهي تقول ذلك.

لم أستطع أن أفكر في أي شيء أقوله إلا: «اسمي هاتي، ما اسمك؟».

ثم خجلت من نفسي؛ لأني كنت أبدو مثل الدمى التي تتكلم.

ابتسمت الفتاة وأجابت: «ليلا كان». أظن أنه عندما تكون أمها المرأة المطاطية فلن تسارع بإطلاق الأحكام على الناس. حقيقة كنت أود لو كانت أم نانسي هي المرأة المطاطية.

«هل أنت...؟» أشعر بالإحراج الشديد وذلك هو نفس الشعور الذي يتملكني في كل مرة يُطلب مني فيها أن أخاطب الفصل وكل مرة أواجه غرفة مليئة بضيوف جدي وجدتي وفي كل مرة أدخل فيها قاعة «نادي اليوم» عندما تكون هناك حفلة أو رقصة. لا أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول. ماذا يحدث لكلماتي؟ «هل أنت...؟».

ابتسمت ليلا لي مرة أخرى وقالت: «أعرف أنه شيء غريب».

«ماذا؟».

«أن أكون فتاة كرنڤال».

«لماذا غريب؟».. لم أكن أعرف شيئًا على الإطلاق عن أطفال الكرنڤال.

«حسنًا بادئ ذي بدء، أمي هي المرأة المطاطية».

نظرت إلى ليلا ثم بدأنا نضحك.

سألت ليلا: «أظن أنكِ تعيشين في الجوار».

أجبت: «نعم»، وكنا نقف تحت شجرة كبيرة مورقة ومع ذلك كنا نتصبب عرقًا وليلا كانت لا تزال تحرك الهواء بالملصق.

قالت ليلا: «انتظري، ابقي هنا للحظة» ثم ذهبت مسرعة. بعدها بدقائق عادت وهي تحمل كوبين من الورق المقوى مملوءين بعصير الليمون والثلج وأعطتني واحدًا.

«شكرًا، كم ثمنه؟» ولم أكن متأكدة أن معي ما يكفي في جيبي.

أجابت ليلا: «بلا مقابل، لقد جلبته من خالي فريد».

سألتها: «خالي فريد؟ فريد كارميل؟».

أومأت ليلا برأسها: «خالك هو فريد كارميل؟».

أومأت ليلا مرة أخرى: «واو!».

كنت منبهرة وبدأ الكلام يتدفق مني: «كيف تعيشين حياتك وأنت فتاة كرنڤال؟».

أخذت ليلا تحكي لي عن أشياء رائعة؛ هي وأسرتها في ترحال دائم؛ في وقت الصيف يتنقل الكرنڤال من مدينة إلى أخرى في الولايات الشمالية؛ وفي الشتاء يذهب من بلدة إلى أخرى في الجنوب أو الغرب؛ في أي مكان يكون الجو فيه دافئًا؛ وفي أشهر الشتاء القارسة البرودة كانوا يقضون شهرين في فلوريدا. كانت ليلا في الثانية عشرة من عمرها وكان لها أخ في العاشرة يُدعى لامار.. كانت ليلا ولامار ملتحقيْن بمدرسة بالمراسلة وكان ذلك شيئًا ينبغي على ليلا أن تشرحه لي.

فقالت ليلا: «تأتينا دروسنا بالبريد ويقوم والدي بمساعدتنا في الواجبات ثم نرسلها بالبريد مرة أخرى. نستطيع أن نذاكر في أي وقت من السنة حتى في الصيف لو كان ذلك يناسبنا. فأنا الآن بدأت في واجبات السنة الثامنة ولامار في السنة الخامسة، وسألت: «وتعملين هنا أيضًا؟ في الكرنڤال؟».

«لسنا مجبرين على ذلك ولكنا نستمتع بالعمل. أعتقد أن لامار سيساعد عمتي جاكي في نزهة البالون اليوم».

«وهل جاكي هي زوجة خالك فريد؟».

«لا. خالي فريد هو أخو أمي وعمتي جاكي هي أخت أبي» سكتت لحظة، ثم أضافت: «هو مشروع عائلي». كنت قد انتهيت من عصير الليمون وبدأت أحرك الماصَّة حول قطع الثلج، ثم سألت: «إلى متى ستمكثون في ميلرتون؟» رفعت ليلا كتفيها وقالت: «لست متأكدة. أعتقد حتى منتصف يولية، أو ربما بعد ذلك بقليل».

شعرت بخيبة أمل؛ فقد كنت أتمنى لو أن ليلا قالت إنهم سيمكثون هنا عدة أشهر. حتى لو كان ذلك صعب الحدوث. نظرت في ساعة يدي وقلت: «آه، لابد أن أذهب، أريد أن أصل إلى البيت في موعد الغداء».

بدا الحزن على وجه ليلا.

قلت: «ماذا هناك؟».

«لا شيء.. حسنًا، فقط.. هل ستأتين مرة أخرى؟».

«ليس اليوم.. لكني أستطيع المجيء غدًا».

«حسنًا».

وفي طريقي إلى المنزل أخذت أفكر في ليلا فتاة الكرنڤال التي تلتحق بمدرسة بالمراسلة والتي لا تكترث بأنني خجول، لكن ليلا نفسها لا تتاح لها فرصة أن يكون لها أصدقاء. ربما كانت مندهشة من أنني أريد أن أتكلم معها مثلما أنا مندهشة من أنها تريد أن تتكلم معي.

توجهت يوم الجمعة مباشرة إلى الكرنڤال ووجدت ليلا عند المدخل وشعرت بأنها كانت تنتظرني.

قالت وهي تمد يدها لأمسكها: «هيا، اليوم سوف أقودكِ في جولة عظيمة».

حسنًا، كانت جولة ليلا العظيمة هي الذهاب إلى كواليس المسرح. عرفتني على أعمامها وعماتها وأولاد العمومة ثم لامار وأمها وأبيها. أخذتني وراء مناضد اللعب في منتصف الطريق وعند أكشاك أكلات الشعوب المختلفة.. لم أصدق نفسي عندما صافحت يد المرأة المطاطية أو عندما ركبنا الألعاب بلا مقابل، أو عندما رأيت المقطورة التي تعيش فيها عائلة ليلا.

قلت لليلا في وقت متأخر من الصباح: «لقد قلت لوالدي إنني سوف أتناول الغداء هنا اليوم».

ابتسمت ليلا في سعادة: «جميل! هيا لنأتي بنقانق». فعلنا ذلك وفي أثناء تناول الطعام أخذت ليلا تحكي لي عن الأماكن التي زارتها، ثم حكيتُ لها عن البنسيون وعن الآنسة هاجرتي والسيد بني وآنجيل فالنتين، ثم وجدت نفسي دون أن أشعر أحكي لها عن جدتي وجدي ثم عن آدم وقلت: «لا أفهم بالضبط ما الخطب به».

بدا على ليلا التفكير العميق وأجابت: «أود أن أقابل آدم في يوم ما».

وأدركت أن آدم لم يأت بعد إلى كرنفال فريد كارميل.

الفصل الحادي عشر

قلت مرة للآنسة هاجرتي عندما كنت في الرابعة من العمر: إن ميلرتون تعرف كيف تتأنق. ضحكت الآنسة هاجرتي وقالت: «أنت محقة يا حبيبتي».

إنها الحقيقة، فميلرتون تعرف كيف تتأنق؛ وهي تتأنق عند كل إجازة يُمكن أن يفكر فيها المرء. كان موسم الهالويين وعيد الميلاد الفترة المفضلة عندي. كان «لانترن»[1] يتألق في نوافذ عرض المتاجر في وسط البلدة. وتعلق الأضواء البرتقالية اللون بين أعمدة النور، وتقريباً كان كل قاطني ميلرتون يزينون حدائقهم بالساحرات والأشباح، أجزاء من القشرة الخارجية للذرة وقرع مُجوف وسنابل الذرة الجافة.. وخلال الكريسماس كانت نوافذ المتاجر تزين بالنباتات الخضراء والشرائط الحمراء وقطع الحلوى.

---

(1) جاك لانترن: قرع عسلي مُجوف ينحت على شكل وجه مخيف ويوضع داخله شمعة ليصبح كالفانوس منتشرًا في وقت عيد الهالويين في أمريكا.

وكانت كل البلدة متلألئة، والبيوت محاطة بالأضواء.

لم يكن يوم الاستقلال في روعة عيد الميلاد، ولكنه لا يزال ممتعًا؛ كان وسط البلد في ميلرتون يموج بالألوان الزرقاء والحمراء والبيضاء مع كل بداية لشهر يولية وترفرف الأعلام الأمريكية على طول شارع ناسو وأمام معظم المنازل. أما الأطفال فكانوا يزينون الدراجات بالورق الأحمر، والأزرق يلفونه حول الأعمدة الداخلية للإطارات وعندما يقودون الدراجات تتحول الألوان إلى اللون البنفسجي.

كان أول ما أفعله عندما أستيقظ في اليوم الرابع من شهر يولية أن أنظر من النافذة. كنت أتمنى أن تكون السماء صافية بلا غيوم، وتحققت أمنيتي؛ فالسماء كانت مثل بحيرة جبلية زرقاء.

عدوت بسرعة إلى أسفل وجهزت صينية الآنسة هاجرتي في عجلٍ. وعندما وضعت الصينية على الفراش قلت: «لن تمطر اليوم. لا توجد سحابة واحدة في السماء».

ابتسمت الآنسة هاجرتي وقالت: «رائع. لن يفسد علينا المطر الأمر إذن».

في الرابع من يولية من كل عام، كانت تقام حفلة موسيقية في الميدان العام بالبلدة وكان الجميع يأتون بالطعام وتكون مناسبة للزوار وتبادل أطراف الحديث، والأكل معًا بينما الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعات موسيقى استعراضية ووطنية، منها «أنت يا بلادي» و«العلم ذو النجوم المتناثرة»، لكن في العام الماضي كان هناك مطر غزير فألغيت الحفلة وجلسنا أمام التلفزيون وأخذنا نراقب الألعاب النارية في نشرة الأخبار. هذا لن يحدث في هذا العام.

كنت دائمًا أذهب إلى الحفلة الموسيقية مع أمي وأبي وجدي وجدتي. كانت تلك الحفلة من الأحداث النادرة التي توافق عليها جدتي؛ فهي راقية والموسيقى التي تعزف أثناءها وطنية.

آدم سوف يأتي معنا هذا العام، وبدا عليه الإثارة الشديدة: «موسيقى رائعة، مثيرة، وتبعث على التفاؤل، هاتي، موسيقى استعراضات لسوسا. أوه! هل تستطيعين رؤيتها، الخطوط العريضة، النجوم اللامعة، ولوسي سوف تهديهم تمثالاً. أوه، أوه، أوه، هاتي!».

في وقت متأخرٍ من بعد الظهر تركنا البيت أنا وأمي وأبي حاملين معنا مُبرِّدًا كبيرًا. كان بداخله بطيخة كبيرة قد نحتها أبي على شكل سلة عن طريق إزالة الجزء العلوي تاركًا جزءًا صغيرًا لليد، ثم أفرغ البطيخة من الداخل وملأها بقطع الفواكه؛ وهو ما جعلها مثل سلة الفواكه الحقيقية، أعتقد أنها كانت من ابتكارات أبي البارعة، وكل عام كنا نقترح أن نأتي معنا بشيء آخر للرحلة لكن جدتي كانت تحب أن تسيطر على الأمور.

كان ذلك يعني بشكل رئيسي أنها تفضل أن تنقل إحدى الولائم الرائعة التي عادة ما تقام في حجرة المائدة الرسمية في منزل جدي وجدتي إلى الميدان العام. في الوقت الذي كان فيه الجميع يأكلون النقانق وسلطة البطاطس في أطباق من الورق وبملاعق من البلاستيك، كنا نحن نأكل مشهيات ولحمًا مشويًا وجزرًا صغير الحجم في أطباق خزفية وبأدوات مائدة فضية.

كنت أشعر بالناس وهي تحدق إلينا، لكن مع ذلك لم أكن أود أن تفوتني الحفلة.

وصلنا إلى الميدان وأخذنا نبحث عن جدتي وجدي وآدم في الزحام. كان من السهل العثور عليهم بالتأكيد؛ حيث كانوا يجلسون على مفرش كبير مثل بقية الناس، ولكن كان من الصعب عدم ملاحظة كومة الأطباق ذات الحافة الذهبية وصوت رنين الفضة.

نظر آدم إلينا عندما اقتربنا وقال: «هاتي! هاتي! دوروثي! جوناثان! هذا هو وقت العيد السنوي انظروا؛ دجاج مشوي طازج وتشكيلة مُغرية من الخضراوات».

في الوقت الذي بدأ آدم يعدد ويشرح أصناف الوجبة قام أبي بإفراغ المُبرد ووضع سلة الفواكه على صينية جهزتها جدتي بعناية وقعت عينا آدم عليها. ولثانية توقف عن الكلام تمامًا، ثم تدفق منه طوفان من الكلمات: «جوناثان، إنها لرائعة! إنها فعلاً رائعة! إبداع ما بعده إبداع. نعم أوه! نعم». كان آدم يقفز لأعلى وأسفل وهو يدلك يديه.

أخذت أنظر حولي، كان إلى جوارنا عائلة مكونة من ثلاثة أولاد قد وضعوا أكلهم على ملاءة زرقاء باهتة، ووضعوا في أطباقهم نقانق وهمبورجر وبيضًا، كانوا يأكلون ولكنهم توقفوا وأيديهم في طريقها إلى أفواههم وأخذوا يحدقون إلى آدم. كانوا فعلاً قد توقفوا عند هذا الوضع مثل أفلام الكارتون.

قررت أن أحدق أنا أيضًا إلى أحدهم. اخترت الأم؛ فهي الشخص الذي أعتبره مسئولاً عن تعليم آداب السلوك لأطفالها. أخذت «بسكويتة» من طبقٍ وأمسكتها، وقبل أن أضعها في فمي أخذت أحدق إليها حتى لاحظتني، وعندما انتبهت إليَّ تضرَّج وجهها بالحمرة فشعرت بالرضا.

بعد أن تخطى آدم الإثارة التي ارتبطت بسلة البطيخ امتثل للهدوء لبعض الوقت. ملأنا الأطباق بالطعام وبدأنا نأكل في الوقت الذي أخذت الفرقة فيه تستعد للعزف. تناول أبي كاميرا السينما وأخرجها من صندوقها، ثم بدأ يحوم بها حول الميدان، ثم ركز الصورة عليّ، وعلى أمي وجدتي وجدي، كل منا ابتسم ولوح له. وعندما التفت بالكاميرا ليصور آدم قال له: «ابتسم». لكن آدم رفض أن ينظر إليه. صاح أبي فيه: «آدم!». كنت أعرف أن آدم يسمعه ولكنه بدأ يأكل بسرعة ملتهمًا شوكة تلو أخرى من الدجاج، لم أعرف لماذا لا يريد فجأة أن ينظر إلى الكاميرا.. كان فقط لا يريد. أعار أبي اهتمامه إلينا مرة أخرى.. أشار أبي إلى الدجاج ثم مسح على بطنه بشكل دائري. أمي حركت فمها بلا صوت وكأنها تقول: «يام، يام، يام». مع ذلك لم يفعل آدم شيئًا سوى الأكل، كنت أجلس بجواره، أطلقت صوت تجشؤ منخفضًا لكنه واضح وكنت أعلم أنه الوحيد الذي يستطيع أن يسمعه. أخيرًا، ضحك آدم. كان أبي سعيدًا وأنا سعيدة والكل سعداء.

انتهت الفرقة من حالة التأهب وبدأت في عزف مقطوعة موسيقية هادئة لا أعرفها، وحولي بدأ الجميع يخلدون إلى الراحة، وبعد دقائق أصبحت الأصوات خفيضة، وعندما توقف جاك بسيارة الأيس كريم (جوود هيومر) على ناصية الميدان لم يكن هناك تدافع مجنون إليها كما كان يحدث عندما تمر بشارعنا وهي تدندن في أوقات العصر المشرقة.. بدلاً من ذلك، هنا وهناك كان يقف أحدهم بعد أن يتثاءب ويشد جسده ليبحث عن نقود صغيرة قبل أن يذهب على مهل إلى السيارة ليختار ساندويتش آيس كريم أو جرانيتا.

كنت سعيدة لأن الجميع من حولي بدءوا يسترخون وينعزلون بعض الشيء وأصبحت المفارش كالجزر المنعزلة التي يتردد من عليها أن يتركها.. بدأت في الاسترخاء.

قالت جدتي وهي تجمع الأطباق مع أمي: «حسنًا، من يريد أن يُحلّي؟».

رددت وراءها: «الحلو، ما هو؟».

مدت جدتي يديها في إحدى سلال النزهة وقالت: «فطيرة فراولة وتوت مع الكريمة المخفوقة».

قلت بسعادة: «آه، أحمر وأزرق وأبيض». ونظرت إلى آدم وأنا واثقة من أن ذلك سيمتعه.

لكن وجه آدم كان جامدًا.. جامدًا ومتشنجًا، في الواقع كان مخيفًا بعض الشيء.. قال: «أريد أن أحضر الحلو من سيارة (جوود هيومر)..».

قالت جدتي: «لكن إيرمالين صنعت...».

قفز آدم: «أنا لا أحب الفراولة! أنا أريد آيس كريم شيكولاتة، لديَّ ما يكفي من النقود!»، وسحب بعض النقود من جيبه واستطرد: «وأريد أن أرى ساندي».

تجهم وجه جدي وقال: «ساندي؟ أوه! آدم، إن ساندي لم تعد تقود سيارة الآيس كريم جوود هيومر».

قلت مؤكدة: «نعم. الآن جاك هو الذي يقودها». قال آدم بصوت عالٍ: «لا أهتم من الذي يقود السيارة الملعونة، سوف أذهب لأحصل على الآيس كريم». بدأ في اختراق الناس الواقفين، ومع أنه لم يدهس أيًّا من المفارش فقد تسبب في دفع بعض الناس وقلب كرسيٍّ من كراسي الحديقة.

قالت لي جدتي وهي تدفعني للأمام: «اذهبي معه يا هاتي». كان قلبي يدق وأحسست بغصة في حلقي لكنني عندما لحقت به ابتسم لي وقال: «عندنا ما يكفي لشراء اثنين. ماذا تريدين يا هاتي؟ ماذا تريدين؟ هل تريدين أن تتمتعي؟ هل تريدين آيس كريم؟ سوف أصرخ وأنتِ تصرخين، كلنا سنصرخ للآيس كريم!».

«أنا أريد...».

«انظري! ها هي العربة! وها هو الرجل.. هل هذا الرجل هو جاك؟».

لم يكن هناك طابور عند العربة فسعدت. قلت: «نعم، هذا هو جاك».

رآني جاك وقال: «عيد استقلال سعيد يا هاتي». أجبت: «عيد سعيد جاك، هذا خالي آدم. آدم هذا...».

«نعم، نعم جاك الشهير، تحياتي يا جاك. ما الأصناف التي لديك في تلك العربة الرائعة؟ أنا نفسي أحب آيس كريم شيكولاتة، هل عندك آيس كريم شيكولاتة للزبائن العظماء؟ ماذا تحبين يا هاتي؟ عندما كانت لوسي حاملاً، كان الوحم يغلبها في الرابعة صباحًا فسألت ريكي أن يحضر لها آيس كريم فستق مع شيكولاتة ساخنة وسردين. أوه! كم هذا رائع!».

ضحك جاك في هدوء: «حسنًا، لا يوجد عندي سردين».

ضحك آدم هو أيضًا وبدا عليه أنه سيبدأ في الهدوء.

بعد ذلك بلحظات، حصل آدم على قطعة آيس كريم شيكولاتة وحصلت أنا على ساندويتش آيس كريم.. وودعنا جاك ورجعنا إلى مكان النزهة.

وعندما جلسنا بدأت الموسيقى الهادئة تتحول إلى موسيقى أكثر مرحًا مثل «عندما يأتي القديسون».

وبدأت مظاهر الاحتفال تعود إلى الجميع، بدأ الناس في الصياح. ورأيت نساء ورجالًا بهيئات غير واضحة وهم يقفون ليتكلموا إلى الأصدقاء أو ليعدوا وراء الأطفال. وفي منتصف الأغنية لاحظت أن آدم لم يعد يجلس معنا على المفرش، كنت أنا الوحيدة التي لاحظت ذلك؛ لأن الظلام كان قد بدأ يعم ولأن ستة من أصدقاء جدتي وجدي كانوا قد توقفوا ليتكلموا معهم والكبار كانوا منشغلين بالحصول على القهوة من البراد الفضي.

وقفت بسرعة. لم يكن لديَّ فكرة عن مكان آدم وأنا ألعق الشيكولاتة من على أصابعي، جريت إلى مكان الفرقة الموسيقية.

كان آدم قد وقف مباشرة وراء قائد الفرقة وأخذ يرقص على أنغامها، لا بد أن أعترف بأن الموسيقى كانت تحفز الجميع - حتى أنا - على الرقص. لكن كان الناس في الحفلة الموسيقية في الرابع من يولية في مدينة ميلرتون لا يرقصون. هم يجلسون ويأكلون ويتكلمون ويتزاورون فحسب.

كان آدم الوحيد الذي يرقص، ومع ذلك فقد لفت بالطبع الكثير من الأنظار. كان عدد لا بأس به من الناس قد توقف عن الأكل والحديث والتفت لينظر إلى الشاب الذي يقفز إلى أعلى وإلى أسفل، أعلى وأسفل على صوت الموسيقى. أحيانًا يدلك يديه، وأحيانًا يصيح: «السعادة السعادة». جعلني ذلك أبتسم، يا لها من طريقة رائعة للاحتفال بعيد الاستقلال!

انتهت الأغنية وبدأت أغنية أخرى، نظرت ورائي. كان والدي وجدي وجدتي لا يزالون منشغلين بالضيوف.

قررت أن أنتظر حتى انتهاء تلك الأغنية ثم أحاول أن أتكلم مع آدم؛ فلا أعتقد أنه من الصواب أن أزعجه الآن.

كنت واقفة وراءه أنتظره عندما سمعت كلمات «عرض الكائنات العجيبة» استدرت بسرعة، حسنًا كانت نانسي وجانيت واقفتين. يا لها من مفاجأة! نظرت إليهما بحدة، ورغم أن الموسيقى لم تنته أخذت آدم من ذراعه ووجهته إلى المكان الذي نفترشه. سمح لي بذلك كما سمح لي من قبل عندما عدت به إلى المنزل في ذلك الصباح الباكر. في أثناء عودتنا عبر الزحام كان قد بدأ في استعادة هدوئه حتى إنه عند عودتنا إلى جدتي وجدي كان هو آدم المعتاد الذي يتكلم عن آيس كريم الشيكولاتة.

جلست على طرف المفرش بعيدة عن الجميع، كان وجهي يكاد يضيء. استطعت من فوق قمم الأشجار أن أرى الألعاب النارية تغطي سماء الليل، أعتقد أنها الألعاب النارية لكرنڤال فريد كارميل.

كنت أجلس هناك أحملق عندما داهمني خاطر فظيع جدًّا. أنا لا أعلم تمامًا ما خطب آدم، لكن ربما يكون من تلك الأمراض التي تتوارثها العائلات؛ ربما لذلك يبدو على جدتي وجدي أنهما يخجلان منه. وربما... هل هذا هو السبب وراء إخفاء أمر آدم عني من قِبل أبي وأمي؟ حتى لا يقولا لي عن المرض؟ هل يعتقدان أنني أشبه آدم قليلًا؟ هل لهذا تريد أمي أن أكون مثل بقية الأطفال؛ حتى تؤكد لنفسها أنني لن أكون مثل آدم في يوم ما؟

التفت ورائي ونظرت إلى أسرتي، لم أستطع أن أوقف الأسئلة التي كانت تدور في رأسي ولم أستطع أن أوجه سؤالاً واحدًا منها.

الفصل الثاني عشر

بعد الرابع من يولية بدأت الأيام تأخذ نمطها المعتاد. في الصباح، أعدُّ إفطار الآنسة هاجرتي وأتناول إفطاري مع أمي وأبي والسيد بني وأتفحص تصفيفة شعر آنجيل فالنتين وزيها وهي تخرج مسرعة حتى الباب. وعندما أنتهي من كل أعمالي المنزلية أذهب إلى الكرنفال، وأقضي أنا وليلا بقية اليوم معًا حتى وقت الغداء. كان الغداء دائمًا عبارة عن نقانق مع عصير الليمون الذي كانت ليلا تحصل عليه مجانًا. أحيانًا كنا مسئولتين عن أحد الأكشاك أو بيع التذاكر أو دعوة الناس ليتفرجوا على العروض الجانبية، وأحيانًا كنا نحاول أن نجد مكانًا ظليلاً وهادئًا حتى نجلس ونتكلم معًا.

في يوم ما سألت ليلا: «ألا يضايقك أن الناس يدفعون النقود ليحملقوا في أمك؟ ألا يضايق ذلك الأمر أمك؟».

عَبَست ليلا: «لا أعرف، أعني... لو أن هذه هي الطريقة التي يريدون أن ينفقوا بها نقودهم...»، ثم استطردت: «هذا أفضل من الحملقة وعدم الدفع».

أجبت: «أعتقد ذلك».

«بالإضافة إلى ذلك إنه غير حقيقي. فمعظم المشاركين في العرض يُمثلون ويعرفون كيف يضعون أدوات تجميل وأزياء معينة أو كيف يقدمون خدعة ما. أما الذين أقلق عليهم فعلًا فهم أناس مثل الولد القرد أو الصغيرة تيس، الناس يأتون ليتفرجوا عليهم لعيب خلقي بهم ولدوا به. يقولون إنهم لا يهتمون بذلك؛ لأنهم لا يملكون سوى هذه المهنة لكسب العيش. لا أعرف...».

قلت لها: «الناس ينظرون إلى خالي آدم ويقولون عنه إنه من غرائب الطبيعة».

«ومع ذلك أنت تحبين خالك، أستطيع أن أرى ذلك».

«نعم أنا أحبه. أتعرفين ما أفضل شيء أحبه فيه؟ أحب إحساسه بالسعادة. فمعظم الناس لا يشعرون بالسعادة التي يستطيع آدم أن يشعر بها».

عندما يسعد آدم يأخذ في القفز مثل طفل صغير ويصيح: «السعادة».

ابتسمت ليلا ورددت: «السعادة».. ابتلعت آخر قطعة من رغيف النقانق وقالت: «هل جاء إلى هنا؟ أنا متأكدة أن ذلك سيسعده».

لم يأت إلى الكرنڤال بعد بسبب نظرة جدتي القاتمة إلى أناس السيرك مع أن ليلا وأسرتها في الواقع أناس كرنڤال.

قلت: «أنا أيضًا متأكدة أنه سوف يستمتع».

قالت ليلا: «إذن، أحضريه إلى هنا».

«سوف أفعل عندما يحين الوقت المناسب».

حان الوقت المناسب بعد ذلك ببضعة أيام؛ كان ذلك في صباح يوم الجمعة وكنت قد انتهيت من الأعمال المنزلية، وعندما كنت أجلب المكنسة من الشرفة الأمامية رأيت آدم يأتي عبر الممشى وهو يصفّر.

صاح وهو يلوح بيديه في حماس: «يوم ثامن من يولية سعيد يا هاتي أوين!».

«أهلاً، آدم».

سأل: «هل الآنسة آنجيل فالنتين موجودة؟».

كان في أفضل حالاته المزاجية. لكن، لماذا لا يتذكر عمل آنجيل؟ أعتقد ربما لأن عملها يذكره بالاختلاف الكبير بينه وبينها؛ فلو كان آدم شخصًا عاديًا لكان هو أيضًا في عمله الآن.

قررت عدم الإشارة إلى ذلك فقلت: «آدم، ما رأيك أن تأتي معي إلى الكرنڤال؟» بشكل ما لم تعد فكرة السير مع آدم عبر البلدة مخيفة بالنسبة لي خاصة أن ليلا ستكون في انتظارنا عند آخر الرحلة، فلن أكون بمفردي مع آدم طوال الوقت.

«إلى كرنڤال فريد كارميل للمرح والجوائز ومنتصف الطريق، والعروض الجانبية وأكلات الشعوب؟».

«نعم».

«حالاً؟».

«حسنًا، نعم مباشرة بعد أن أكلم جدتي. أعتقد أنها ستسمح لنا بالذهاب».

وعلى الرغم من موقفها تجاه أناس السيرك بدت جدتي مرتاحة لفكرة أن تأخذ راحة من آدم في البيت ويبدو أنها تثق فيَّ معه. كانت تعلم أني أذهب إلى الكرنڤال طوال الوقت. شعرت أن جدتي لا تنتظر من آدم أكثر من ألا يسبب لها المشاكل أو الإحراج.

وعندما ابتعدنا عن منزل جدتي عبر الممشى الأمامي صاحت جدتي: «استمتعا بوقتكما!»، ثم قالت: «آه، آدم انتظر. انتظر هنا» اختفت جدتي ثم عادت ووضعت عشرة دولارات في يد آدم، قالت له: «اجلب لك ولهاتي الغداء واستمتعا بالألعاب».

انتظرت حتى أصبحنا بعيدين عن مسمع ومرأى جدتي وقلت: «لن نحتاج الكثير من هذا المال. سوف نحصل على غداء مجاني ونستطيع أن نركب الألعاب بدون نقود أيضًا. لا بد أن ندفع في المسابقات فقط فلن أشعر بالارتياح وأنا أكسب جائزة كبيرة من غير أن أدفع نقودًا».

بدا على آدم عدم التركيز: «ركوب».

«نعم مجانًا والغداء أيضًا».

«حقيقي؟».

«نعم. أنت لم تلتقِ صديقتي ليلا بعد» الآن أعارني آدم اهتمامه، وقال: «ليلا؟ من ليلا؟».

أخذت أحكي له عنها وعن أخيها لامار وعائلة «كان» وحياتهم الجذابة. ولدى وصولنا إلى الكرنڤال كان آدم في حالة تأهب؛ المراجيح التي تلف

ورائحة غزل البنات والحلوى والبطاطس المحمرة والموسيقى الآتية من اللعب وجموع الناس؛ كل ذلك جعله في حالة من الإثارة.

«هاتي، هاتي يا صديقتي القديمة، يا له من مكان رائع!» اخترق آدم مدخل الكرنڤال وأخذ يجري من منطقة جذب إلى أخرى. «كوم من الطاقة في ساحة ميلرتون الخلفية! فشار، فول سوداني، النقانق الحمراء الساخنة، هنا. لوسي وبوب هوب[1]. وآه، هاتي انظري إلى السماء، انظري إلى السماء».

نظرت إلى أعلى لكنني لم أستطع أن أرى ما يراه آدم هناك؛ كان هناك فقط آثار طائرة. أتمنى لو نستطيع أن نجد ليلا بسرعة. أتمنى ألا يكون إحضار آدم هنا غلطة. كان أول مكان نبحث فيه عن ليلا هو شباك تذاكر لعبة الساقية والحمد لله أنها كانت هناك. عندما رأتني رفعت يديها وأخذت تلوح لي، ثم رأت آدم فهبت واقفة ودفعت لامار للجلوس في مكانها وقالت: «حان دورك!».

حلت ليلا مئزرها وغادرت الكشك مسرعة:

«أهلًا هاتي! هل هذا آدم؟».

قبل أن أجيب قال آدم وهو يتأرجح إلى الأمام والخلف على كعوب قدميه: «أقسم، ليلا كان، ابنة أخت فريد كارميل نفسه مالك هذا الكرنڤال الرائع..

هذه إجازة، احتفال، اتحاد جنات! المجد، المجد».

---

(1) ممثل كوميدي شهير.

قالت ليلا: «أهلًا!»، كانت تبتسم وعرفت أنها تأكدت من أن ذلك هو آدم «ما رأيك في جولة حول الكرنڤال؟ لقد قمت بذلك مع هاتي من قبل».

لم تنتظر ليلا إجابة آدم. أخذته من يده وفجأة أصبحنا في عالم الكرنڤال، بدأنا من منتصف الطريق وهناك استخدم آدم بعضًا من نقود جدتي للعب المسابقات. عندما خسر ثلاث مرات متكررة رأيت عينيه وقد اغرورقتا بالدموع وجسده يتصلب، وتمتم: «هذا ليس لطيفًا، ليس لطيفًا».

قالت ليلا: «هيا نجرب فنون الغزل».

وفعلنا ذلك وعندما انتهى آدم قلت له: «ما رأيك أن نركب بعض الألعاب؟».

أضافت ليلا: «أي لعبة تريدها بلا نقود؟».

نظر آدم إلى أسفل وقال: «أوه لا. لا شكرًا، شكرًا جزيلاً، إنكِ طيبة جدًا، أنا متأكد، لكن لا ألعاب، شكرًا».

سألت ليلا: «حقًا؟ ما رأيك في دوارة الخيل؟بعض الخيول لا تصعد ولا تهبط، أو تستطيع أن تجلس على أريكة عادية».

استمر آدم في النظر إلى الأرض وقال: «من المستحيل يا فريد أن تصاب بدوار البحر في مركب لا يتحرك، قل ذلك لمعدتي».

لأول مرة شعرت ليلا بالحيرة، نظرت إليَّ فقلت لها: «هذا من حلقات (أنا أحب لوسي) أعتقد أنه حفظ كل الحلقات عن ظهر قلب».

عبست ليلا ثم قالت: «هل يصيبك دوار البحر يا آدم؟ أعني، هل تشعر بالغثيان عندما تركب شيئًا؟».

«لا».

الآن ذُهلنا.

سألت: «لكنك لا تريد أن تركب شيئًا؟».

أجاب آدم: «أحب أن أراقب الساقية».

«مجرد أن تتفرج عليها؟».

«نعم».

وقفنا أمام كشك التذاكر حيث يبيع لامار التذاكر وأخذنا نراقب الساقية وهي تدور ببطء وتلف فوق أرض الكرنڤال.

أخيرًا قال آدم: «أنا أشعر ببعض الجوع، معدتي تتكلم إليَّ».

قالت ليلا: «إذنْ هيا نتناول الغداء».

جلسنا إلى منضدة في الظل ومعنا عصير الليمون والنقانق، وكان آدم لا يزال هادئًا. أخذ يأكل بينما أخذت أنا وليلا نتحدث عن الكتب. ليلا كانت تحب القراءة مثلي ولكنها لم تكن مشتركة في أي مكتبة؛ حيث إن أسرتها لا تمكث في مكان واحد مدة طويلة.

سألتها: «كيف تحصلين على الكتب إذن؟».

«نشتريها من أسواق السلع المستعملة وعمتي دوت تهديني كتبًا في عيد ميلادي».

قال آدم: «عيد ميلاد هاتي قد اقترب».

«حقيقي؟ متى؟».

استعاد آدم حيويته: «في السادس عشر من يولية يا ليلا! السادس عشر من يولية. أسبوع من الغد».

قالت ليلا: «بديع! سأكون هنا.. نستطيع أن نحتفل بعيد ميلادك يا هاتي».

قفز آدم وقال: «ليلا، ليلا! عندي فكرة تعالي هنا».

لم يكن آدم يعرف كيف يخفي شيئًا.

ابتسمت وأنا أراه يجذب ليلا بعيدًا عن المنضدة وأخذ يتكلم معها بحماس ويداه تصفقان وهو يقفز لأعلى ولأسفل، وعندما رجع بعد دقائق قال:

«هي خدعة ذهنية يا ليلا. أقول لك خدعة ذهنية.. الإثنين هو اليوم الذي ولدت فيه فعلًا. اسألي والديك. ما رأيك في تاريخ آخر؟ أعطيني تاريخًا آخر، أي تاريخ تختارينه».

أطاعته ليلا وهي تبتسم.

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم أوصلت آدم إلى بيت جدي وجدتي.

آدم أخذ يحكي لأمه: «أكلنا نقانق وراقبنا الساقية، لكنا لم نركبها، ولعبنا المسابقات لكننا لم نكسب شيئًا.. ليلا طيبة، طيبة، طيبة جدًا. إنها تذهب إلى مدرسة بالمراسلة. وهناك رجل لم يستطع أن يخمن مقدار وزني؛ ولذلك حصلت على هذه»، أخرج آدم مطواة صغيرة من جيبه.

اختفت ابتسامة جدتي وقالت: «أرجوك أعطني هذه يا آدم». أعطاها آدم المطواة. «تلك من الأشياء التي تستطيع الاحتفاظ بها لكنك لا تستطيع لمسها، سوف نضعها في الخزانة التي في حجرة المعيشة». وطئ آدم الأرض

بخطى متثاقلة وهو يبتعد عن أمه، هزت جدتي رأسها وقالت: «أعتقد أني لا أتوقع أن تحسني التصرف أكثر من هذا. وأهل السيرك لا يعرفون آدم طبعًا، لكن...».

وراءها كان آدم يخرج لجدتي لسانه وهو يصعد السلم. أدرت لها ظهري وغادرت المكان.

الفصل الثالث عشر

أصبح الوقت الذي أقضيه مع ليلا في الكرنڤال أطول، وفي عصر يوم من الأيام كنت عائدة إلى المنزل في وقت متأخر لدرجة أنني رأيت آنجيل فالنتين وهي عائدة من العمل في الاتجاه المقابل، نظرت في ساعة يدي. بالتأكيد، إنها بعد الخامسة عصراً.

لوحت آنجيل إليَّ وأساورها تشخلل، كانت ترتدي قميصًا أبيض بالدانتيلا نظيفًا جدًا لدرجة أنه يخيل للمرء من كثرة نظافته أنه يلمع، ومعه جونلة ذات خطوط صفراء وبرتقالية وحمراء كانت تنساب في ثنيات ناعمة من وسطها حتى تحت الركبة، وكانت ترتدي حزامًا عريضًا من الجلد الأسود حول خصرها، كانت تبدو مثل الغجر أو مثل راقصة إسبانية.

لوحت لها وأنا أشعر بالقبح من سروالي القصير والـ«تي - شيرت»، وبلا أي مجوهرات من أي نوع، مع ذلك عدوت في اتجاه الشارع إلى آنجيل حتى نسير معًا إلى ساحة المنزل لأجد فرصة لقضاء بعض الوقت معها.

سألت آنجيل وهي تمسح جانبي وجهها بالمنديل: «أين كنتِ؟».

أجابت: «الكرنڤال».

ابتسمت آنجيل: «الكرنڤال. كان ذلك رائعًا».

كنت أعلم أنها تتكلم عن يوم افتتاح الكرنڤال.

سألتها وأنا أتشوق لأن تقول لي شيئًا عن فرانكي أفالون الذي كان معها: «هل استمتعتِ بوقتك يومها؟».

«قضينا وقتًا سعيدًا».

«هل ذهبت مع...» أعتقد أن خديَّ تضرجا بالحمرة ولكن على أية حال كان عليَّ أن أسأل: «هل هو خطيبك؟» «هنري؟».

«الشاب.. صاحب السيارة المكشوفة».

ابتسمت آنجيل مرة أخرى ولكن هذه الابتسامة كانت لنفسها: «حسنًا.. ما زلنا في مرحلة التعارف، لكنني أفترض أنه خطيبي. نحن معجبان ببعضنا البعض».

سألتها ونحن نستأنف السير: «هل هذا هو كل ما يصنعه الخطيبان؟ أن يعجبا ببعضهما البعض!».

قالت آنجيل: «المسألة أكبر من ذلك يا هاتي». كلانا قفز لمسافة ميل عندما سمعنا صوتًا من وراء شجرة ليلك يقول: «هاتي! هاتي أوين! والآنسة آنجيل فالنتين الجميلة! أمسية جميلة لكما أنتما الاثنتين».

شهقت وقلت: «آدم!».

من أين آتي؟ أعتقد أنه لابد كان في انتظارنا، وهذا الظهور المفاجئ جعل قلبي يخفق.

كان آدم يقف بجانبي أنا وآنجيل بمسافة أقرب قليلاً مما ينبغي. قال: «إن القدر يبتسم لنا اليوم في ذلك المساء الصيفي القديم. يبتسم مثل قطط شاشير[1] كبيرة، قطط شاشير في السماء. هاتي وآنجيل قطط شاشير في السماء!».

أخذت خطوة إلى الوراء ولاحظت أن آنجيل كانت تتراجع هي أيضًا. كان هناك شيء في ابتسامة آدم، في الطريقة التي يجعل بها عينيه تضيقان بعض الشيء، لا يشي بخير. ثم التف آدم وجرى إلى الشرفة وهبط بعنف على مقعد وجلس وهو ينحني إلى الأمام ويفرك يديه معًا، لحقت أنا وآنجيل به، وجلسنا بحذر شديد على أرجوحة الشرفة. وفي ثوان تحول آدم تمامًا. جلس باسترخاء في المقعد.

انتظم تنفسه وقال: «آنجيل فالنتين، تبدين مثل حديقة صيفية هذا المساء».

أجابت آنجيل: «شكرًا، هذه جونلة جديدة».

قال آدم باحتشام: «إنها لائقة جدًّا».

رأيت عينيه وقد تحولتا عن وجه آنجيل واستقرتا على صدرها مرة أخرى.

ربما بسبب هذا، أو لسبب آخر، وقفت آنجيل فجأة وهو ما جعل الأرجوحة تهتز، وقالت: «كنت أحب أن أجلس هنا وأتحدث معكما لكنني على موعد اليوم».

---

(1) قطط في قصة «أليس في بلاد العجائب» Cheshire cats تبتسم ثم تختفي وتبقي ابتسامتها فقط.

كنت على وشك أن أسأل: «مع هنري؟» لكنني أعتقد أن آدم لن يرغب في سماع أي كلام عن خطيب آنجيل. تراجعت وأنا منتظرة انفجارًا أو أن يخرج آدم وهو يخطو بتثاقل على الشرفة، أو أن يصيح، أو تنهمر دموعه. لكنه بدلاً من ذلك بدا عليه الاهتمام وقال: «ميعاد! ميعاد في ليلة الإثنين. منتهى التحرر يا آنجيل فالنتين. منتهى الأناقة».

كان ذلك هو نفس ما فكرت فيه.

ابتسمت آنجيل في جاذبية وأضافت: «سنذهب إلى مطعم فرنسي».

كان أقرب مطعم فرنسي في سارينتقيل على الجانب الآخر. لابد أن يكون ذلك ميعادًا مهمًّا.

قال آدم: «لوسي أكلت قواقع في مطعم فرنسي ولم تعجبها على الإطلاق. لا تأكلي أية قواقع في المطعم الفرنسي يا آنجيل فالنتين».

ابتسمت آنجيل ووعدت بأنها لن تفعل، ثم سارت بخفة إلى الداخل. أخذتُ أراقب آدم. للمرة الأولى لم يراقب آنجيل عندما اختفت أعلى الدرج، قفز آدم ووقف متصلبًا أمامي وهو يخفي يديه وراء ظهره.

قال وكأنه سيلقي كلمة قد حفظها عن ظهر قلب: «هاتي أوين يا صديقتي القديمة.. كما تعرفين فإن عيد ميلادك قد اقترب». سكت، فكرت في أنه يجب أن أقول شيئًا. فأومأت برأسي: «يوم السبت».

«وكنت أنا وليلا نريد أن نقدم لكِ شيئًا خاصًّا لابد أن تحصل على حفلة عيد ميلاد. لابد بالتأكيد. الكل عنده ما يكفي من الأصدقاء لحفلة عيد ميلاد؛ لأن المرء كما ترى يحتاج إلى صديق واحد لإقامة حفلة، واحد

يكفي، اثنان كافيان، أي عدد كاف!». جذب آدم ورقة مثنية من جيبه وأعطاها لي.

فتحتها، كان بها خط يد كبير ومائل.

صاح آدم: «اقرئي يا هاتي، اقرئي بصوت عالٍ».

تنحنحت وقلت: «أنتِ مدعوة إلى حفلة؛ التاريخ: الجمعة الخامس عشر من يولية. المكان: كرنڤال فريد كارميل للمرح. الوقت: من الثالثة والنصف عصرًا بالضبط. المناسبة: عيد ميلاد هاتي أوين الثاني عشر. نظم الحفل: صديقاها ليلا وآدم».

خفضت الورقة وقلت: «واو!! آدم هذا رائع».

telegram: @mbooks90

سأل آدم: «تستطيعين المجيء، أليس كذلك؟»، وأخذ يدعك يديه وعيناه تستعطفانني أن أقول بلى.

ولكني أخذت أفكر في أن حفلة جدتي الراقصة عصر يوم الجمعة ولا أعرف ما إذا كان ذلك سيسبب مشكلة. لم أكن أريد لآدم أن يصاب بخيبة أمل، وطبعًا لم أكن أريد أن أشترك في الرقصة. لكن جدتي...

كان آدم يحدق إليَّ بشدة كما لو كان في مسابقة للتحديق، كان لا يزال واقفًا وقد وضع يديه على ركبتيه ثم انحنى ليصبح وجهه على بُعد خطوات من وجهي. أعتقد أنه كان يبحث عن إجابة. كيف أستطيع أن أقول له لا؟ كيف أستطيع أن أقول لا لجدتي؟

كنت أريد أن أذهب إلى الداخل وأسأل أحدهم النصيحة. كان والداي دائمًا منشغلَيْن بإعداد العشاء في حين تكون الآنسة هاجرتي في حجرتها.

قلت لآدم: «أعطني لحظة».

كنت في منتصف الطريق إلى الباب عندما جذب آدم قميصي: «ماذا تفعلين؟».

اصطدمت به: «أنا».

«ألا تريدين المجيء لحفلتنا؟».

نظرت إلى ساعتي من خلال الباب السلكي، ثم نظرت إلى وجه آدم، وقلت: «سوف أسير معك حتى المنزل. أريد أن أفرّج جدتي على الدعوة. إنها جميلة وهذه أول بطاقة دعوة حصلت عليها لعيد ميلادي».

ذلك جعل آدم يبتسم.

بدأنا السير على الطريق. كان آدم غير مستقر اليوم وأحسست ببعض الخوف. كان يطلق الكثير من الأصوات في أثناء سيرنا. كان يصلصل بالنقود في جيبه، وأخذ يدندن وهو ينهج. كان أحيانًا يوقف الدندنة حتى ينفخ وجنتيه ثم يفرغهما من الهواء بأصبعه. بدأت أفكر أن أفضل شيء أتوقعه عندما نمر أمام منزل نانسي وجانيت أن يدندن ويصلصل بالنقود في جيبه دون أن يفرغ الهواء بأصبعه. لكننا مررنا ببيتهما ولم نرهما.

التفت أنا وآدم ناحية شارعهما ورأيت جدتي تقف عند الدرج الأمامي للبيت. لوحت لنا وهي تحاول أن تبدو مسرورة ومبتهجة، لكني كنت أعرف أنها كانت قلقة ومن المرجح أنها اتصلت بأبي وأمي، وقالا لها إنهما لم يرياني ولم يريا آدم طوال اليوم.

صحت: «أهلاً جدتي، انظري إلى هذا!».

كنت متأكدة أن جدتي تريد أن تقول شيئًا لآدم.

لكنني أخذت ألوح بالدعوة فوق رأسي. عبست وهي تنظر إليه، وهي تأخذ مني قطعة الورق. وسألت: «ما هذا؟».

قلت: «آدم أحضرها الآن. هو وليلا سيقيمان لي حفلة عيد ميلاد».

أخذت جدتي تقرأ الورقة. وتقطيبة وجهها لم تتلاش «ليلا هي في السيرك».

قلت لها: «ليلا هي (ليلا كان). أسرتها تملك كرنڤال فريد كارميل. هي صديقة جديدة».

أضاف آدم: «هاتي سوف تحصل على حفلة عيد ميلاد هذا العام. سوف نقيم لها حفلة».

«هاتي تقام لها حفلة عيد ميلاد كل عام» قالت جدتي: «مع الكبار».

قال آدم: «ليس مع أصحابها». أستطيع أن أرى عضلة تتحرك على جانب وجهه، وأعتقد أنه يجز على أسنانه.

قالت جدتي أخيرًا: «حسنًا، آدم، هذه لفتة لطيفة منك، لكن يوم الجمعة هو يوم رقصة الكوتيليون «لكن هاتي لا تريد»، بدأ آدم يتكلم وللحظة خاطفة اعتقدت أنه ربما يعلم كيف أشعر تجاه الرقصة وأنه سوف يقول لجدتي إنني لا أريد الذهاب، لكنه قال: «هاتي لا تريد أن يفوتها حفلة عيد ميلادها». قالت جدتي بتعقل: «ألا تستطيعون أن تجعلوا الحفلة في نهاية الأسبوع. فعيد ميلاد هاتي يوم السبت على أية حال».

فجأة، بدأ آدم في الصياح: «لا، لابد أن يكون يوم الجمعة! ليلا لابد أن تعمل يوم السبت، ذلك يوم ضغط في العمل». كان يوم السبت يومًا مزدحمًا بالعمل في الكرنڤال، لكن أشك في أن ليلا يجب أن تعمل.

قالت جدتي وهي تحاول أن تخفض صوتها: «آدم».

مدت يدها نحوه لكنه أزاحها بعيدًا. «ما رأيك في مساء الجمعة إذن؟ أو يوم الأحد؟». أخذت خطوة إلى الوراء فاصطدمت بأحد أعمدة الشرفة واستطاعت أن تستعيد توازنها.

«لا، لا أستطيع أن أغير خططنا بسهولة، خططنا مهمة، هي مهمة، أنا مهم. لقد أعددنا خططًا، لمَ لا تكون خططنا مهمة؟».

قلت: «آدم، إن خططك مهمة. إنني أريد أن أذهب إلى الحفلة». نظرت إلى جدتي وكانت لا تزال تتعلق بالعمود. قالت جدتي: «لكن، آدم يوم الجمعة...».

كنت أستطيع أن أرى اللون الأحمر وهو ينتشر على وجه آدم. فتح آدم فمه وكأنه سيتثاءب، بل كان سيصرخ، سيطلق صرخة من صرخات وحوش السينما المفزعة. وضعت يديَّ على أذنيَّ وأنا أنتظر، لكن آدم أغلق فمه وتغضن وجهه ثم انفجر في البكاء، أخذ يبكي بصوت عالٍ كالأطفال. قالت لي بتسي في يوم إنها تتمنى لو تستطيع أن تبكي بهذا الشكل، أن تكرمش وجهها وتأخذ زفيرًا عميقًا ثم تطلقه في صرخة في كل مرة تشعر فيها بالإحباط، وقد كان ذلك ما يفعله آدم الآن.

بعد عدة لحظات بدأ العويل يقل وجلس على درج الشرفة وأخذ ينشج بهدوء.

قلت: «جدتي؟».

لم تستطع جدتي أن تجيبني في البداية، كانت على وشك أن تبكي هي أيضًا. كنت أستطيع أن أرى ذلك. أخذت خطوة في اتجاه ظهر آدم كما لو كانت ستلمس كتفه، ثم تراجعت وقالت: «بالطبع تستطيعين أن تذهبي إلى حفلة آدم يوم الجمعة يا هاتي»، ثم استدارت ودخلت المنزل.

راقبت آدم وقلت: «شكرًا للحفلة يا آدم. أنا متشوقة لحضورها».

لم يُجب آدم.

جلست بجواره، لم أكن أعرف ما إذا كان من الصواب أن أضع ذراعي حوله؛ ولذلك أخذت أقترب رويدًا رويدًا حتى تلاصقت كتفانا. دفن آدم رأسه في يديه ثم التفت ووضعها في يدي. أخيرًا عرفت أنه لا مانع من لمسه فأحطته بذراعي.

قال آدم: «لا أحد يعلم كيف هو الحال».

«لا» مع أني أعتقد أنني قد أعلم أكثر من معظم الناس «أنتِ لست غريبة يا هاتي. أنا الغريب الوحيد هنا».

لكن آدم كان مخطئًا.. فأنا أيضًا من الغرباء.

الفصل الرابع عشر

اليوم هو يوم الجمعة وهو آخر الأيام التي سوف يكون عمري فيها الحادية عشرة.

كنت أنا وأمي مدعوتين إلى الغداء عند جدتي، كنا نفعل ذلك أحيانًا. غداء للبنات فقط، إلا أن آدم أيضًا سوف يكون هناك اليوم. لم يكن لديَّ مانع من أن أذهب إلى جدتي لتناول غداء البنات بالدرجة التي أمانع بها أن تأتي جدتي لتناول الغداء في منزلنا. عندما ترتب جدتي لغداء البنات تكون هي المسيطرة، وعندما تكون المسيطرة تشعر بالغبطة.

عندما يكون هناك غداء بنات نتناول الغداء في حجرة طعام جدتي وتقدم لنا إيرمالين ساندويتشات صغيرة بلا حواف وأطباقًا صغيرة من الفاكهة والجبن، ثم نتناول الشاي والكعك على سبيل التحلية، وتظل إيرمالين في المطبخ إلا إذا استدعتها جدتي بالضغط على جرس خفي. كنت أشتاق بشدة إلى الضغط على هذا الجرس، لكنه لم يكن مسموحًا

لأي فرد غير جدتي بالضغط عليه. وتقول أمي إن الحال كانت دائمًا هكذا، لقد كانت جدتي دائمًا الملكة.

قبل كل غداء للبنات كانت أمي تثور وتموج، كانت تقول إنه شيء مزعج أن تضطر إلى أن تخلع ملابس العمل في وسط اليوم، لكني لاحظت أنها تقضي وقتًا طويلاً جدًّا أمام المرآة وهي تضبط ثوبها وجواهرها وتضع العطر وراء أذنيها. لم تكن تفعل كل ذلك لتسعد جدتي. أعتقد أنها كانت تود أن تجد ذريعة في الواقع -أي ذريعة- لتكون أميرة جدتي، بعد ذلك في أثناء سيري أنا وأمي في شارع جرانت قالت أمي: «تبدين جميلة يا هاتي». انتهى تذمرها الآن بالنسبة لغداء البنات. «لا أصدق أنك موشكة أن تكوني في الثانية عشرة. تخيلي. في مثل هذا الوقت منذ اثني عشر عامًا في عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين قالوا: إن عاصفة سوف تُقبل وبدلاً من ذلك جئت أنت». ابتسمت ثم قلت: «أمي، لماذا لم تنجبا أنتِ وأبي أطفالاً آخرين؟».

«يا إلهي! من أين جاءك هذا السؤال؟».

رفعت كتفيَّ.

«حسنًا». تلاشت ابتسامة أمي وتنحنحت: «لا أدري، أعتقد لأنك جئت وكنت رائعة؛ ولذلك قررنا أن نكتفي بك».

كان على طرف لساني أن أقول: «تقصدين أن تكتفيا قبل أن ترزقا بطفل مثل آدم؟» لكن الكلمات أبت أن تخرج.

أعتقد أني قد أفسدت الأمر؛ لأننا سرنا بقية الطريق في صمت مطبق. أتمنى لو تتمكن إيرمالين والساندويتشات التي أزيلت حوافها والشاي والبسكويت - من مساعدة أمي على استعادة حالتها المزاجية الأولى.

رحب بنا آدم في بيت جدتي وهو يرتدي بذلة وكرافت، صاح: «أهلاً! أهلاً! هاتي ودوروثي! ادخلي يا دوروثي». دفع آدم أمي عبر الباب الأمامي ثم جذب معصمي وهمس لي: «إنه لشيء حسن أن حفلتك بعد ظهر اليوم يا هاتي. لقد أعدت إيرمالين مشهيات لا تملأ جوف عصفور كناري، لا تملأ جوف عصفور كناري، لا تملأ جوف عصفور كناري. لكن لا تقلقي؛ لأننا من الممكن أن نأكل عند فريد كارميل. أنا وليلا خططنا لكل شيء، لا تقلقي، لا تقلقي لثانية واحدة».

لم أكن قلقة لكنني همست لآدم أشكره واتجهنا إلى الداخل. شعرت بانقباض في معدتي عندما رأيت جدتي. كانت ترتدي زيًّا أكثر أناقةً من الذي تعتاد ارتداءه عند غداء البنات؛ وهو ما يعني أن هذا هو الزي الذي سترتديه بصفتها مشرفة على رقصة الكاتيليون. نظرت إلى ردائي الذي كان أنيقًا لكنه لم يكن بالأناقة المطلوبة لرقصة الكاتيليون، ولم تقل شيئًا. ووجهتنا إلى حجرة الطعام، كانت المائدة الضخمة قد أُعدت لأربعة أفراد - جدتي على رأس المائدة وآدم عن يمينها وأمي عن يسارها، وأنا إلى جانب أمي. أكثر من نصف المائدة كان فارغًا، وبعد جلوسنا إلى المائدة مباشرة قالت جدتي: «حسنًا يا هاتي، أتمنى أن تستمتعي بحفلة عيد ميلادك بعد ظهر اليوم». نظرت أنا وآدم إلى بعضنا البعض، ثم استطردت بلا أي أثر لابتسامة: «حسنًا، عندما نكون مهيئين للأكل سوف أستدعي إيرمالين».

رأيت آدم يندفع إلى اليسار وعرفت تمامًا ماذا فعل، لقد فعل ما كنت أتمنى فعله منذ زمن؛ ضغط بقدمه على جرس جدتي.

صاحت جدتي: «آدم!».

رأيت آدم وقد اندفع ثلاث مرات أخرى ليضغط على الجرس، الأمر الذي فسر اقتحام إيرمالين حجرة الطعام باديًا عليها القلق، قائلةً لجدتي: «سيدتي؟».

«آسفة يا إيرمالين. كان هذا أمرًا غير متعمَّد».

ترددت إيرمالين ثم قالت: «هل أضع الطعام؟».

نظرت جدتي إلى آدم قائلة: «لست على يقين من أن آدم مستعد. آدم هل يسعُك أن تأكل معنا في حجرة الطعام أو تُراكَ تريد أن تأكل في المطبخ؟».

احمرَّ وجه آدم، وأظن أن وجهي كذلك احمرَّ. أعرف كم هو مُغرٍ هذا الجرس!

واجه آدم جدتي وقال: «هل يسعك أن تأكل معنا في حجرة الطعام أو تُراك تريد أن تأكل في المطبخ؟».

قالت جدتي: «آدم!».

قال آدم: «آدم!».

«ولا كلمة واحدة».

«ولا كلمة واحدة».

جدتي عجوز ضئيلة الجسم، ولا أشك أنني أثقل منها، لكنَّ لها صوتًا جهيرًا. وقفت جدتي وراحت تستخدم صوتها.

وجهت نظرات نارية إلى آدم، ثم أشارت إلى باب الحجرة، وقالت: «إلى الخارج!» كما لو كان آدم كلبًا «إلى الخارج».

قالت أمي: «أمي...» ولكنني لم أتمكن من معرفة ماذا كانت مزمعةً أن تقول؛ إذ أسكتتها جدتي بنظرة جانبية طويلة.

خرج آدم من الباب في طرفة عين، وكنت أعلم أنه ليس من الحكمة أن أتبعه، ولم أره حتى انتهى الغداء. كانت أمي وجدتي تتكلمان معًا في الردهة عندما ذهبت أبحث عنه، فوجدته في حجرة الجلوس.

في البداية لم يكن يريد أن يتكلم معي.

سألته: «هل أكلت شيئًا؟».

كان آدم قد أدار أحد المقاعد ليواجه الخارج، وكان يحدق إلى الحديقة.

سألته: «هل أعَدَّت لك إيرمالين الغداء؟».

لم يرد.

قلت أخيرًا: «يمكننا أن نقيم الحفلة في يوم آخر».

كان آدم ساكنًا لمدة طويلة جدًّا لدرجة أني تصورت أنه لن يجيب عليَّ. كنت شبه واثقة أننا لن نقيم حفلة، وبدأت أفكر فيما لو كان ذلك يعني أن عليَّ أن أذهب إلى رقصة الكاتيليون، ثم قال آدم: «الحفلة لا تزال قائمة يا هاتي، تعالي في الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة». قال ذلك بنبرة جعلتني أشعر لأول وهلة أن آدم أكبر مني سنًّا، ثم تذكرت أنه خالي وليس صديقًا فحسب. أجبت: «حسنًا» لم أكن أعلم ماذا أتوقع عندما أعود إلى منزل جدتي في الثالثة وخمس عشرة دقيقة. ربما يكون آدم مُعاقبًا وأجد جدتي تسحبني من يدي وتأمرني بالذهاب إلى المنزل لأبدل ثيابي وتجبرني على الذهاب معها إلى رقصة الكاتيليون.

حياني آدم لدى الباب. وكما تقول كوكي كان يبدو نشيطًا وفي حيوية زهرة الأقحوان، كان قد أخذ دشًّا وغسل شعره الذي كان اليوم مفروقًا من النصف ومنسدلاً على الجانبين. كان يرتدي سروالاً قصيرًا ذا «كسرات»،

ومعه قميص أبيض، أزراره كلها منعقدة وربطة عنق بها ألوان خضراء وحمراء، كما كان يرتدي حذاء رياضياً بلا جوارب.

«هاتي، هاتي، هاتي. صديقتي القديمة هاتي، فتاة عيد الميلاد. الفتاة التي تستطيع أن تحرك جوانب الكون، الفتاة التي تشفي رؤيتها العليل، الفتاة التي في الحادية عشرة والتي على وشك أن تكون في الثانية عشرة، الفتاة التي سوف تحظى بحفلة عيد ميلاد مع أصدقائها، الفتاة...».

سمعت جدتي تصيح: «آدم!».

«مع السلامة!» صاح آدم وصفَق الباب وراءه، ثم قال:

«هيا بنا».

كان آدم يمسك بكيس ورق بني. أخذ يدي واتجه ناحية الكرنڤال بخطوات سريعة جدًّا لدرجة أنني اضطررت إلى العدْو لألحق به. كنت أشعر كما لو كنت طفلة تمسك يد أبيها وتحاول أن تلحق بخطواته الواسعة. كان آدم يصفر اللحن المميز لمقدمة (أنا أحب لوسي) في أثناء سيرنا، ثم راح ينشد الكلمات: «أنا أحب لوسي، وهي تحبني. ليس هناك من هو أكثر منا سعادة نحن الاثنين».

كنت بالكاد أستطيع التنفس عندما وصلنا إلى كرنڤال فريد كارميل. نظرت إلى ساعة يدي. لقد وصلنا في الميعاد المحدد وكانت ليلا تنتظرنا عند المدخل الأمامي.

قالت: «عيد ميلاد سعيد يا هاتي!».

قال آدم: «اليوم لا يوافق عيد ميلادها كما تعرفين، وكذلك الغد السبت السادس عشر من يولية، مع أن هاتي قد وُلِدت يوم جمعة».

قالت ليلا: «إذن عيد ميلاد سعيد مبكرًا بعض الوقت». صاح آدم: «فلنستمتع بعيد الميلاد».

قالت ليلا: «نعم، إنه يومك يا هاتي»، أيما شيء تريدينه هذا اليوم فهو مجاني، الألعاب، المسابقات، الأكل، أي شيء».

«شيء رائع». كنت قد حصلت على أشياء كثيرة مجانًا في الكرنفال من قبل، ولكنني حاولت ألا أظهر ذلك. سأل آدم الذي كان يقفز إلى أعلى وأسفل: «ماذا تريدين أن تفعلي أولاً يا هاتي أوين؟».

«أركب الأرجوحات، الأرجوحات أولاً».

مكث آدم واقفًا، وردد ورائي: «الأرجوحات»، ثم زفر وقال: «حسنًا».

كنت أعلم أن ركوب الأرجوحات ليس من الأشياء المفضلة لدى آدم، لكنني أريد أن أركب بعضها بعد ظهر اليوم، كانت تلك فرصة يجب أن أنتهزها.

بدأت أنا وليلا دوارة الخيل، وجلس آدم على مقعد يراقبنا، ثم اتجهنا إلى أرجوحة الصحن المائل، وكانت تجعلني أشعر بالغثيان رغم أنها مثيرة، وجلس آدم على مقعد آخر. وعندما ركبنا أنا وليلا عربة في لعبة الساقية وقف آدم أسفل العربة بجانب كشك التذاكر وأخذ يراقبنا. ومن أعلى كان بوسعي أن أرى رأسه وهو يتابع دورانا ببطء.

وعندما نزلنا من العربة بعد بضع دقائق قالت ليلا: «والآن، ماذا نفعل؟».

سألتها وأنا لا أريد أن أثقل عليها: «هل من الممكن أن نتناول آيس كريم؟».

أجاب آدم: «بالتأكيد، بالتأكيد، آيس كريم كثيرًا، أنا أصرخ، وأنتم تصرخون، كلنا نصرخ طلبًا للآيس كريم. ليلا ليلا تعالي».

همس آدم بشيء في أذن ليلا، وأومأت هي برأسها.

وقالت: «حسنًا، اجلب الآيس كريم واذهب لتجلس هناك. سوف أعود فورًا».

أحضرت أنا وآدم ثلاثة أكواب من آيس كريم الفانيليا، ثم جلسنا إلى مائدة من موائد الرحلات، وسألت آدم: «ماذا ننتظر؟».

«سوف نرى»، ثم بعد ذلك مباشرة راح يغني: «عيد ميلاد سعيد. عيد ميلاد سعيد».

صاحبته ليلا في الغناء، وكانت قد ظهرت ومعها كعكة صغيرة وأربع شموع، لهبها يميل إلى الجوانب طوع النسيم الساخن.

أخذ آدم وليلا يغنيان: «عيد ميلاد سعيد يا هاتي، عيد ميلاد سعيد».

كانت ليلا قد أعدَّت الكعكة بنفسها، وقالت إنها هديتها لي، ثم أعطاني آدم الكيس البني وقال: «وهذه هديتي».

فتحت الكيس وأخرجت صندوقًا خشبيًّا صغيرًا.

قال آدم: «لقد صنعت ذلك بنفسي».

«حقًّا». كان الصندوق رائعًا. كان هناك مقبض صغير على الغطاء جذبته ونظرت إلى الداخل؛ خشب مصقول وناعم.

قال آدم: «يمكنك وضعه في جيبك لتضعي فيه النقود والعملات الصغيرة. لقد صنعته في المدرسة، مدرستي القديمة، ولن أعود إلى هناك مرة أخرى كما تعرفين».

قلت: «إنه جميل يا آدم». كنت أريد أن أعانقه، ولكنه كان في حالة من الإثارة الشديدة وهو يصلصل بالعملات، ويقفز في مكانه على المقعد، فاكتفيت بأن أمد يدي وأمسك بيده عبر المائدة.

كانت بقية الحفلة رائعة، أكلنا حلوى التفاح ثم اشتركنا في المسابقات. وأخيراً ربح آدم دمية على شكل حيوان، فاختار نمراً أزرق. جعله ذلك في غاية السعادة لدرجة أنه أخذ يقفز من فرط النشوة، وهو يدعك يديه ويغني. «أنا ليلا من الوادي! أنا ليلا من الوادي!». وتلك كما أظن مقطع من (أنا أحب لوسي). بعد ذلك أضاع النمر، ولكنه لم يُبالِ؛ إذ كان يريد أن يكسب فقط.

في أثناء عودتنا إلى المنزل قلت لآدم إن تلك كانت أفضل حفلة عيد ميلاد يقيمها أحد لي. غنى آدم: «أنا أحب لوسي ولوسي تحبني».

كان الصندوق الخشبي في جيبي، وفكرت: ما ألطف أن يكون عندي شيء أتذكر به آدم على الدوام!

الفصل الخامس عشر

أقام أبي وأمي لي حفلة أخرى في يوم عيد ميلادي، يوم عيد ميلادي الحقيقي، والذي بلغت فيه الثانية عشرة من عمري في الثانية واثنتين وعشرين دقيقة، وكانت على شاكلة الحفلات التي سبقتها. كان الضيوف دائمًا: أمي وأبي وجدتي وجدي وكوكي والنزلاء في ذلك العام وكان آدم مدعوًّا.

«هل معكِ الصندوق الخشبي الصغير؛ هدية عيد ميلادك يا هاتي؟» سألني آدم وهو يندفع عبر الباب قبل جدي وجدتي اللذين كانا يحملان أكياسًا مليئة بالهدايا. قال آدم: «الكل سوف يمنحونك هدايا اليوم، ولكني أعطيتك هديتك قبلهم. لقد أعجبتك. أليس كذلك يا هاتي؟ أعجبتك الهدية؟ إن إثيل لم تعجبها هدية لوسي على الإطلاق. حسنًا، أنا... أنا أعتقد أنهما جميلتان. ما هما؟ حسنًا، هما سراويل للمضيفة ترتدينها عندما يكون لديك حفل عشاء أنيق، كنت دائمًا أفكر فيما أرتديه عندما أقيم تلك الحفلات الأنيقة».

«لقد راقني الصندوق» قلت لآدم مؤكدة: «إنه في جيبي.. انظر». أخرجته من جيبي ليراه، وحركته حتى يسمع خشخشة النقود فيه.

وبالطبع فقد صور أبي الحفلة، صورني وأنا أفتح الهدايا، وصور الكل جالسين على مائدة الطعام مرتدين قبعات مضحكة، ثم صورني وأنا أقطع الكعكة، وأخيراً صور آدم وهو يضع أصبعه في السكر الذي يغطي الكعكة، ويختلس لنفسه من فوقها أكبر وردة زهرية. ولحسن الحظ، لم يكن هنا صوت يصاحب أفلام أبي، وإلا لسمعنا صوت صيحة جدتي الممتعضة عندما تناول آدم الوردة، ثم مد يده ليتناول الأخرى بنفس الأصبع التي لعقها من لحظات. توقفت الكاميرا في تلك اللحظة، وقال أبي لآدم إنه ذاهب ليجلس في السيارة. قلت: «لا، أرجوك اسمح له بالبقاء، الكعكة ليست مشكلة».

أجابت جدتي: «هي مشكلة بالنسبة لي. وعلى آدم أن يحسن التصرف، لكني أريده أن يبقى. تلك حفلة عيد ميلادي».

لم يسمع آدم ذلك. كان قد صفق الباب الأمامي وراءه وسار إلى المنزل غاضباً.

وضع أبي الكاميرا جانباً، عم الصمت حجرة الطعام، وأخذت الآنسة هاجرتي والسيد بني ينظران إلى أطباقهما. تفحصت كوكي لقمة صغيرة بالشوكة، أما آنجيل ڤالنتين فوقفت وقالت إن عليها أن تذهب إلى البلدة. وبذلك انتهت الحفلة.

ذهب جدي وجدتي إلى منزلهما. من الأرجح أنهما سيلتقيان آدم على الطريق. كنت قلقة على حالته المزاجية، لكن ما من أحد ذكر ذلك، قالت

أمي: «هاتي، إنه عيد ميلادك. لا واجبات منزلية. لا تنظيف ولا مساعدة في تجهيز العشاء اليوم، اذهبي وافعلي ما يحلو لك اليوم».

كان ما أريد أن أفعله القراءة؛ ولذلك أخذت مجموعة من الكتب الجديدة التي أهديت إليَّ وجلست في الشرفة الأمامية معهم حتى نادتني كوكي لتناول العشاء.

كانت الدعوات إلى حفلة عشاء جدتي وجدي مطبوعة على بطاقات بيضاء ذات حواف ذهبية، وكل بطاقة محاطة بورق مناديل، كنت أتتبع بأصابعي الأحرف البارزة على البطاقة الخاصة بأبي وأمي، كانت الحفلة ستقام بعد أسبوع؛ في يوم السبت الذي يلي عيد ميلادي مباشرة، كانت بطاقة الدعوة قد وضعت على لوحة الملصقات في المطبخ لأيام، وأخذت أفكر في أن جدتي لم تكن تريد لشيء أنيق - كتلك البطاقة - أن ينتهي هكذا إلى جانب مجموعة من الطوابع الخضراء وكوبونات السوبر ماركت.

يقيم جدي وجدتي حفل عشاء فاخرًا مرتين في العام؛ مرة أثناء أعياد الميلاد، ومرة في الصيف. وكنت أتساءل ما إذا كانت حفلة هذا العام الصيفية ستؤجل حتى يجدوا مدرسة جديدة لآدم فلا يكون موجودًا في المنزل. لكن أظن أن الإجابة هي لا. ولكني أكاد أتيقن مع ذلك أن آدم لن يحضر الحفل؛ أولًا لأن الأطفال لا يحضرون في الحفلة الصيفية، أعلم أن آدم ليس طفلاً بالمعنى الصحيح، ولكنه لا يزال طفلاً بشكل أو بآخر. عمومًا، فإن جدتي تحب أن تكون حفلاتها خالية من العيوب على الإطلاق؛

فهي لا تحبذ وجود أحد يضع أصابعه في المشهيات، ويغني مقاطع من (أنا أحب لوسي) في الحفل.

معنى ذلك أني وآدم لن نكون مرتبطين مساء يوم السبت على الأرجح؛ فإن آدم سوف يقضي الأمسية في حجرته، وأنا أيضًا سأقضيها في حجرتي أقرأ كتبي الجديدة، أو يمكنني أن أقوم بزيارة الآنسة هاجرتي، ولكنها تريد أن تعلمني أشغال الإبرة، ولا يعنيني هذا. من الممكن أيضًا أن أذهب إلى الكرنڤال، فما ذهبت إلى الكرنڤال في الليل، منذ اليوم الذي ذهبت فيه مع أبي وأمي. نستطيع أنا وليلا أن نركب معًا الألعاب المضيئة ونجلس إلى مائدة رحلات، نتناول آيس كريم في الظلام على ضوء القمر.

سألت نفسي: هل سيسمحون لي بالذهاب؟

في ليلة من الليالي وأثناء مشاهدة التلفزيون سألت أمي: «هل أستطيع أن أذهب إلى الكرنڤال ليلة السبت، عندما تذهبون إلى حفل جدتي وجدي؟».

قالت أمي: «في الليل! وبمفردك؟!» أجبت: «لا أدري، سوف أكون مع ليلا، سوف أقضي الأمسية كلها معها».

نظر أبي وأمي كل منهما إلى الآخر.

فأضفتُ: «إن والدي ليلا دائمًا هناك».

قالت أمي: «أظن أنه لن تكون هناك مشكلة».

قال أبي: «ما دمت ستنتظرينني حتى أجيء لأصحبك بعد الحفل. لا أريدك أن تسيري بمفردك في الظلام».

قلت: «سوف أنتظرك».

في اليوم التالي أخبرت ليلا بخطتي، فقالت: «وماذا عن آدم؟ هل يمكنه هو كذلك المجيء؟».

صحيح أن آدم سوف يكون في حجرته ولكن لا شك لديَّ أنه لن يُسمح له بالذهاب إلى الكرنڤال ليلاً من غير جدي وجدتي.

قلت لليلا: «لا أعتقد ذلك».

بعدئذٍ، وبعد كل الذي حدث لآدم في تلك الليلة والأيام التي تلتها، لست واثقة تمامًا ما الذي دهاني حتى أقترح على آدم أن يتسلل من المنزل ويذهب معي إلى الكرنڤال، لعله أمر غير ذي جدوى، بشكل ما طرأت الفكرة، ورحت أنا وليلا نتكلم ونتكلم عنها ونحن نعرف أنها خطأ، ولكننا انجذبنا إلى جرأتها.

قلت: «لا يبدو لي أمرًا صائبًا؛ أن يجبر جدي وجدتي آدم على البقاء في غرفته أثناء حفل العشاء».

قالت ليلا: «كما لو كانا يريدان أن يخفياه عن الأعين».

قلت: «سوف يتمتع أكثر في الكرنڤال، فلم يره قطُّ في الليل».

«لعلك تستطيعين أن تقولي له تسلَّلْ من المنزل عندما يبدأ حفل العشاء».

«ربما».

«لكن، ماذا تفعلين بآدم عندما يأتي أبوكِ لأخذك من الكرنڤال؟».

كان ذلك سؤالاً جيدًا.

«أستطيع أن أقول له إن آدم جاء إلى الكرنڤال بمفرده، وإنني قابلته بعد أن وصلت إلى هنا».

بدا على ليلا بعض التردد.

في النهاية استنتجتُ أنه في الغالب لابد أن يصاحب ذلك الفعل نوع من المشاكل، وكنت على استعداد لأن أقوم بتلك المجازفة. كنت أريد لآدم أن يقضي أمسية مفعمة بالإثارة لمرة واحدة دون أن ينبهه أحد إلى أنه يجب أن يراعي سلوكه أمام الحضور، وأن يقضي ليلة واحدة دون وجود جدتي بجانبه؛ لأنها تحاول أن تجعله يبدو في صورة مثالية.

عن قريب سوف ترحل ليلا، وسوف يغادر آدم إلى مدرسة جديدة، ولن تتاح لنا هذه الفرصة مرة أخرى.

في يوم الجمعة - وكان ذلك اليوم الذي يسبق حفل عشاء جدتي وجدي - طرحت الفكرة على آدم.

«آه، آه يا لها من مغامرة يا هاتي أوين! إنها لمغامرة حقًّا. تلك أفضل من رحلة لوسي إلى هوليوود، أفضل من ذهابها إلى أوربا أو فلوريدا. هذه أقرب إلى رحلتها إلى المريخ مع إثيل. أنا معكم يا هاتي، أنا معكم يا هاتي، سوف أكون هناك بالتأكيد».

قلت له: «لكن يجب أن تتذكر أنك لن تقول شيئًا لجدتي أو جدي».

قال آدم بحقد: «إنهم أناس أشرار، أشرار».

قلت: «قابلني على الناصية غدًا في الساعة السابعة والنصف مساءً، وتذكر ألا يراك أحد في أثناء مغادرة المنزل».

أجاب آدم: «تمام، مضبوط. أمركِ نافذ».

في الليلة التالية كان آدم في انتظاري عند الناصية، كان يقفز ويصيح: «هاتي، هاتي! لقد فعلتها، لقد هربت ولم يرني أحد، لقد حصلت على تصريح بمغادرة مستشفى المجانين! لنبدأ المرح».

هرعت على الطريق وأنا خائفة من أن يرانا أحد. كان آدم يقفز ويدور ويدندن ويغني: «أنا أحب لوسي، ولوسي تحبني».

وصلنا إلى كرنڤال فريد كارميل وقت أن كانت الأضواء توشك أن تضيء. وفي ساحة انتظار السيارات كنا نستطيع أن نرى الأشكال المظلمة وهي تُبعث إلى الحياة.

«هذا سحر!» همس آدم وهو يرى لعبة الطبق المائل، ثم الساقية وهما يظهران عن بُعد.

مشينا إلى المدخل حيث وجدنا ليلا في انتظارنا، كانت وراءها دوارة الخيل وكأنها وهج ذهبي يضيء شعرها، كان آدم على حق؛ فقد كانت ليلا تبدو كالسحر، وكذا دوارة الخيل. كنا محاطين بالسحر في تلك المغامرة المُحرمة.

غَمرَ آدم السرور للدرجة التي لم يستطع معها الكلام. أخذ يراقب دوارة الخيل لدورتين كاملتين، ثم نظر إلى يساره، وأخذ يراقب الساقية. وأخذ رأسه يلف ويلف معها.

ثم همس أخيرًا: «هذا ممتع للغاية».

قالت ليلا: «ماذا؟ الساقية؟».

قال آدم وهو لا يزال يهمس: «نعم، هيا بنا نركبها».

قلت: «حقًا؟ أتريد أن تركب الساقية؟ هل أنت واثق؟».

أومأ آدم برأسه. قلت أنا وليلا في نفس واحد: «حسنًا».

كان لامار عند شباك التذاكر ولوَّح لنا ونحن نقف في نهاية الصف. ببطء أخذنا نتقدم، ثم صعدنا الدرجات الخشبية الأربع لنصل إلى اللعبة، وكان السيد «كان» واقفًا عند نهاية الدرج وأخذ يساعدنا في ركوب العربات.

قلت: «سوف أجلس إلى جوار آدم».

أغلق السيد كان مشبك حزام الأمان، ثم تأكد من أنه مُحكم مرة أخرى، وقال: «حسنًا. أنتم على أهبة الاستعداد».

قام بإنزال القضيب الحديدي الخاص بالمركبة التي أجلس أنا وآدم بها ثم قضيب عربة ليلا، وأمسك آدم بشدة بهذا القضيب، لدرجة أن قبضته أصبحت بيضاء تمامًا، نظرت ليلا إلى يده ثم إليَّ ثم إلى آدم، وقالت: «أمتأكد أنك تريد ركوب اللعبة؟ يمكن أن يجعلنا أبي نهبط الآن».

هز آدم رأسه. لم أكن واثقة مما يعنيه. هل لا يريد الهبوط؟ أو هل يريد البقاء؟ لكن ذلك لم يكن ذا أهمية الآن؛ لأن العربة كانت قد تحركت للأمام، وكنا قد بدأنا الصعود. ارتفعنا فوق أرض الكرنڤال والأضواء تبتعد عنا.

صاح آدم: «أوه! هوه هوه هوه!».

أدارت إحدى راكبات العربة أسفلنا رأسها لتنظر إلى آدم، فأخرجتُ لساني لها.

وصلنا إلى أعلى ارتفاع في اللعبة وقد تناثرت تحتنا أضواء ميلرتون. كذا الشمس وذاك هو الكون. كنت أفكر في ذلك، في نفس الوقت الذي قال فيه آدم بصوت ناعم: «إنها أرض الأحلام إنها أوز[1]. إنها نيرفانا. آه ذلك هو مركز الكون».

ثم رجع برأسه إلى الوراء لينظر إلى السماء.

هبطت العربة التي نركبها إلى الأرض ثم صعدت مرة أخرى. كنا في أقصى ارتفاع للعبة الساقية للمرة الثالثة، عندما سمعت صرير معدن ثم توقفت العربة بنا، ومقعدنا يتأرجح.

سألت ليلا: «ما الخطب؟».

«لا بد أن الماكينة توقفت.. ذلك يحدث أحيانًا، وأبي دائمًا يصلح العطب».

نظرت إلى آدم.

أكملت ليلا: «نحن محظوظان! فلقد علقنا في القمة. وهذا هو أفضل موقع يمكن أن نعلق فيه، فبوسعنا من هنا أن نشاهد المنظر لمدة طويلة».

«أظن أنني أستطيع أن أرى شارع جرانت -

أوه، هوه، هوه هوه!».

«آدم؟» نبهته، لأنها لم تكن صيحة تنم عن السعادة.

«أوه! هوه، هوه هوه، أوه أوه هوه هوه هوه!».

---

(1) إحدى المدن الخيالية في قصة الأطفال الشهيرة «ساحرة أوز».

telegram: @mbooks90

كان صوته يعلو عند كل مقطع وعندما صرخ عند آخر «هوه» صفَق القضيب الحديدي بيده.

استدارت المرأة التي كانت تركب في العربة التي تلينا وأخذت تحدق إلى آدم، و صاح أحد الركاب في عربة أخرى: «اسكت يا مجنون».

قالت ليلا: «آدم. لقد قلت لك إن أبي سيصلح العطب. يحدث هذا دائمًا».

لم يسمعها آدم. أخذ يصرخ ويصرخ ويصرخ بلا كلمات، فقط أصوات مرتعدة، بدأت يداي ترتجفان. تذكرت عندما واسيت آدم عند شرفتهم الأمامية ولكنني توخيت الحذر من لمسه الآن.

كنت أريد أن أنزلق وأزحف حتى أصل إلى ليلا؛ فقد كنت خائفة من الغريب الجالس إلى جواري.

الفصل السادس عشر

قالت ليلا ببطء وبوضوح: «آدم.. سوف يصلح أبي اللعبة».

رجع آدم برأسه إلى الوراء وصاح بصوت كالعواء: «يصلحها الآن».

قالت له ليلا: «سيستغرق هذا بعض الوقت».

صاح الرجل الـذي دعا آدم بالمجنون: «فليُسكت أحدهم هذا الذئب».

«اخرس أنت أيها...» بدأت أصيح، لكن ليلا مدت يدها عبر العربة ووضعت يدها على معصمي.

همست بصوت مسموع: «لا تقولي له شيئًا».

لم أكن أعرف ما الذي أقول، ولكنني لم أكمل الجملة.

«أصلحوا العربة الملعونة! أصلحوا العربة الملعونة! أوه، هوه هوه هوه!».

استدرت في جلستي، وقلت وأنا أواجهه: «آدم». فلم ينظر إليَّ. «آدم».

أخذ يضرب القضيب الحديدي بعنف: «آدم». طاخ طاخ طاخ!

أحاول أن ألمسه، لا أعرف كيف ألفت انتباهه. دفع ذراعي بشدة بدرجة أنني اصطدمت بجانب العربة وأوجعتني كتفي بشدة وصحت: «آدم!».

«لا تلمسيني أيتها الصغيرة الـ...» وغرقت كلماته في طوفان من الحركات. كان يتأرجح إلى الأمام والخلف وأخذت العربة تتأرجح معه، وفي الوقت نفسه كان يحاول أن يلوي القضيب الحديدي ليرفعه فوق رءوسنا، وفي الواقع أنه كان يبدو قويًا بالدرجة الكافية التي تسمح له بأن ينجح في رفعه، وقد كان يمكنني رؤية عضلاته وهي تتقلص.

أزحت ليلا، فنظرت إلى أسفل وصاحت: «أبي.. أبي». صاح السيد «كان» ردًا عليها: «إننا نعمل بأقصى جهدنا».

«لكن يا أبي إنه...».

وفي هذه اللحظة، نجح آدم في رفع القضيب الحديدي الذي أصدر صريرًا معدنيًا، ثم وقف على قدميه. انحنيت أنا وليلا إلى الأمام، وقالت ليلا: «آدم، اجلس».

صاح آدم: «اسكتي، اسكتي، اسكتي!» إلا أنه جلس. نظرت إلى العربات التي أمامنا والتي وراءنا. كان الرجل الذي سب آدم يصدر الأوامر إلى أحدهم والمرأة التي كانت تحدق مستمرة في التحديق، لكنها الآن كانت تحدق إليّ أنا وليلا، لا إلى آدم، وبدا عليها القلق، ثم قالت: «لا تفقدا هدوءكما يا ابنتيّ، إنكما تحسنان التصرف، فلا تفقدا هدوءكما».

كنت بالكاد أسمعها. وقف آدم مرة أخرى وأخرج إحدى رجليه خارج العربة، فبدأت أصرخ.

في نفس اللحظة صرخت المرأة: «ارجع إلى العربة!» وصاح الرجل «اطلبوا الشرطة! اطلبوا الشرطة!» «هم في الطريق» سمعت السيد «كان» يقول من أسفل: «الشرطة آه يا ربي! الشرطة».

لا يهمني ما الذي يمكن أن يفعله آدم بي، لكنه لا يستطيع. لا يستطيع أن يقفز من العربة. كم ارتفاعنا؟ طابقان؟ ثلاثة؟ أكثر؟ صحت: «ليلا، ساعديني! أمسكي ذراعه» أمسكت أنا وليلا بذراع آدم، وأخذنا نشده إلى الداخل وسقطنا نحن الثلاثة في العربة.

«إليكما عني.. إليكما عني» أخذ آدم يحرك يديه ورجليه بشدة، وراح يضرب ويركل، ثم استند إلى ركبتيه وأخيرًا وقف على أحد المقاعد.

كانت النظرة التي على وجهه نظرة رعب شديد. وتذكرت كيف حاولت منذ نحو عام أن أخيف أبي بقناع من أقنعة عيد الهالويين المرعبة. كنت أقصد أن أخيفه وأمزح معه، ولكن بدلاً من ذلك أخفته فعلًا، ولن أنسى أبدًا أبدًا ذلك التعبير الذي ارتسم على وجهه. كان تعبيرًا ينم عن رعب حقيقي، يذكر المرء أنه مهما يكن الفرد عاقلاً وناضجًا فإن هناك جزءًا بداخله يعرف أن هناك عالمًا شريرًا خارج عالمنا اليومي والعادي. وعلى الرغم من أننا لا نتوقع من ذلك العالم أن يصطدم بعالمنا الهادئ المعروف، فإنه يمكن في الواقع أن يحدث ذلك في أي لحظة.

نظرت إلى آدم الآن، وأدركت أنه مرعوب، مرعوب، مرعوب. كم مرة انتابه هذا الإحساس؟

سمعت السيد «كان» يقول: «الشرطة قادمة».

ثم صرخ أحدهم، ثم اثنان، ثم ثلاثة.

صاحت ليلا: «هاتي، قفي».

وقفت. كان آدم يضع قدمًا واحدة داخل العربة الآن، وكان يحاول أن يتسلق على حواف القضبان الحديدية التي تتكون منها لعبة الساقية.

صاحت المرأة: «أمسكيه».

وفي حين حاولت أنا وليلا أن نمسك به بدأت الساقية تتحرك إلى الأمام.

قالت ليلا: «آدم، لقد أصلحوها».

قلت: «ارجع!».

سمعت صوت أنين صفارة الإنذار من بعيد.

لم يرجع آدم إلى العربة، وعندما بدأت الساقية تهبط لم نستطع أنا وليلا أن نفعل شيئًا أكثر من أننا أحكمنا قبضتنا على كاحليه. أمسكنا به حتى وصلنا إلى الأرض. أعتقد أن السيد «كان» جعلها تدور أسرع من المعتاد.

أخذ آدم يرفس في محاولة للتخلص منا. وراح يرفس بشدة لدرجة أن أسناني أخذت تصطك ببعضها البعض، ولكني لم أفلته.

في الأسفل وقفت الساقية. حاولت أن أقف أنا وليلا على أقدامنا في حين أمسك شرطيان بآدم وجذباه عبر القضبان المعدنية، وأنزلاه على الأرض، ثم حاولا أن يضعا قيدين في يديه.

صحت: «توقفا! لا تلحقا به الأذى!» وعدونا أنا وليلا وراءهما وقلت: «اتركاه. لن يؤذيكما».

لكني لم أكن واثقة من ذلك. كان آدم يصيح: «أوه هوه، هوه، هوه!» وكان يصارع الضباط وهو يتلوى ويركل ويعض. أخذوا يصارعونه حتى وضعوا القيود في معصميه.

ظهر السيد «كان» ووضع ذراعًا حول ليلا وأخرى حولي: «هل أنتما على ما يرام؟».

قالت ليلا: «نحن على ما يرام» على الرغم من السحج والكدمات وملابسنا الممزقة.

كان حشد كبير قد تجمع، ونحن معلقون في الساقية وأصبح أكبر الآن. وكان الجميع يحدقون إلى آدم ورجال الشرطة. لم يقل أحدهم شيئًا ولكني كنت أستطيع أن أقرأ في أعينهم كيف ينظرون إلى آدم. كانوا سعداء لأنه لا يمت لهم بصلة قرابة، وأن أحدًا آخر هو المسئول عن التعامل معه. استطاعت السيدة «كان» أن تشق طريقها وسط الجمع ووصلت إلينا ثم احتضنتني قائلة: «كل شيء سوف يكون على ما يرام يا هاتي».

كنت أريد أن أدفن وجهي في صدرها وأنسى آدم، لكني لم أستطع أن أبعد نظري عنه.

جاء شخصان آخران من الجمع؛ كانا أبي وجدي: «هاتي! هاتي!».

صاح أبي وقد بدا عليه الخوف: «ماذا يحدث؟».

اتجه جدي ناحية رجال الشرطة وقال: «أهلاً»، ومد يده إلى آدم ولكن أحد رجال الشرطة اعترض طريقه: «أنا آسف يا سيد ميرسر». فقال لي أبي: «ماذا يحدث؟».

«لقد كنا نركب الساقية وتعطلت، فجن جنون آدم».

«لكن، ماذا يفعل آدم في الكرنڤال؟».

بدأت أقول: «لقد جاء معي...».

توقفت عن الكلام لأن أحد رجال الشرطة تمكن أخيراً من إغلاق القيدين حول معصمي آدم، وأمسك شرطيان بذراعه وبدآ السير خلال الجمع.

قالا: «ارجعوا إلى الوراء!» فتفرق الناس ببطء، وأعينهم لا تزال مثبتة على آدم.

صاح جدي وهو يجري وراءهما مرتدياً ملابس السهرة الرسمية وحذاءه الأسود الذي غطاه الآن الغبار: «إلى أين تأخذانه؟».

رد أحدهم: «إلى المستشفى».

«هل هذا أمر ضروري؟».

أمسكني أبي من مرفقي وأخذ يجذبني وهو يلاحق آدم وجدي ورجال الشرطة. نظرت ورائي لأحاول أن أجد ليلا، لكنني لم أستطع أن أراها في الزحام.

قال أبي بقسوة: «هيا يا هاتي!».

لم يُجِب رجال الشرطة عن سؤال جدي، من الواضح أن اصطحاب آدم إلى المستشفى كان ضرورياً؛ إذ لم يتوقف عن مصارعتهم، حتى إن

رجال الشرطة عندما رفعوه محاولين حمله من ذراعيه، أخذ يركلهم ويضربهم.

لم أكن مندهشة عندما رأيت سيارة إسعاف تدخل من مدخل الكرنڤال، سحب رجال الشرطة آدم إليها، وفي ثانية كانت سترة التكتيف قد أُحِكمَ إغلاقها حوله ووُضِعَ داخل السيارة، دخل جدي معه: «سوف نذهب إلى مستشفى سانت ماري». وقال لنا قبل أن يُغلق باب السيارة فتدور مغادرةً المكان.. وسارت دون صوت، لكن بسرعة كبيرة.

نظرت إلى أبي. بدأ يتكلم بسرعة كبيرة: «حسنًا سوف نأخذ سيارتنا ونعود إلى الحفل. سوف أصطحب جدتي إلى سانت ماري وأنت ستبقين مع أمك وتساعدين إيرمالين وشيرمان في إنهاء الحفل والتنظيف». «سانت ماري. أين هي سانت ماري؟».

أخذ أبي يجري بي في الكرنڤال. وخارج المدخل رأيت سيارتنا الفورد تقف بميل، وأحد أبوابها لا يزال مفتوحًا.

قال أبي: «ادخلي».

جلست بجانبه.

«الآن أخبريني كيف جاء آدم إلى الكرنڤال الليلة؟».

نظرت إلى يدي وتمتمت بالحقيقة.

قال أبي: «ماذا؟».

«طلبت منه أن يأتي معي؛ حتى لا يقضي الأمسية بمفرده في الحجرة»، واستطردت بصوت مسموع: «كان ذلك يبدو قاسيًا».

نظر أبي إليَّ وقال: «هل أخذت إذن جدتك وجدك حتى تفعلي هذا؟».

هززت رأسي نافيةً، فقال: «ولماذا؟».

«لأنني اعتقدت أنهما سيرفضان».

نظر أبي أمامه وهو يقود السيارة بسرعة عبر ساحة انتظار السيارات متجهًا إلى منزل جدتي وجدي. لم يقل شيئًا. لم يكن ذلك ضروريًّا. إنني أعلم فيما يفكر، وأعلم أني في مأزق كبير.

الفصل السابع عشر

هناك أيام أتمنى فيها لو لم أكن أعيش في ذلك البنسيون الغبي وأتمنى لو أستطيع أن أصحو من النوم كالأفراد العاديين من غير أن أسمع أصوات آلاف الساعات وهي تدق، ومن غير أن ألتقي السيد بني في الردهة قبل أن يحلق ذقنه ومن غير أن أجهز إفطار الآنسة هاجرتي. كانت هناك أيام أود فيها لو أستطيع أن أهشم ساعات السيد بني وتحف الآنسة هاجرتي. كنت أود أن أجلس لتناول الإفطار مع أبي وأمي فقط ولا أضطر إلى النظر إلى آنجيل ڤالنتين بجمالها الذي لن أفوقه في يوم من الأيام.

كان يواتيني هذا الشعور تقريباً كل يوم خلال الأسبوع الذي تلا انهيار آدم وهو في الساقية.

في ليلة الأحد بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من اصطحاب رجال الشرطة لآدم، رجع آدم من المستشفى، وأظن أن الأطباء أرادوا أن يمكث

مدة أطول ولكن جدي تحدث معهم في ذلك، وتبرع بمبلغ ضخم للمستشفى وبعد ذلك مباشرة كان يصطحب آدم معه إلى المنزل.

وكانوا جميعًا ساخطين عليَّ.

تكلم أبي وأمي معي أكثر من مرة يوم الأحد؛ الليلة التي سبقت ذلك، وبينما كنت أساعد أنا وأمي إيرمالين وشيرمان في حفل العشاء الذي لم يكتمل لم تكلمني أمي على الإطلاق، ولكنها عوضت ذلك في اليوم التالي.

سألتني: «هل عندك أدنى فكرة عما فعلتِه في الليلة الماضية يا هاتي؟».

كان ذلك في وقت متأخر من الصباح. وكنا في حجرة المعيشة. كان أبي وأمي جالسين على الأريكة وهما ملتصقان، كأنهما يحتاجان أن يحمي أحدهما الآخر، أما أنا فجلست على المقعد ورجلاي متشابكتان.

«أعلم أنه كان ينبغي عليَّ ألا أحفز آدم ليتسلل خارج المنزل، لكن ليس لذلك علاقة بالأمر. لقد ذهب إلى الكرنفال من قبل، لكنه لم يكن يريد أن يركب أي لعبة.

قال أبي: «هاتي، إنكِ تسيرين على أرض خطرة»، وفتحت فمي ثم أغلقته.

قالت أمي: «آدم هو ابن جدتك وجدك».

قلت: «ما هو بالطفل».

قال أبي: «هاتي».

قالت أمي: «في بعض الأحيان هو طفل، على أية حال يجب ألا تتخذي قرارات بشأنه. ذلك مخول لجدتك وجدك فقط. وأعتقد أنك تعرفين ذلك يا هاتي، وإلا لكنت استأذنتِ أن تصطحبي آدم معكِ إلى

الكرنڤال. لماذا لم تأخذي الإذن؟» قلت وأنا أتنهد بقوة: «لأن جدتي وجدي ما كانا ليوافقا».

«ولماذا تعتقدين أنهما كانا سيرفضان؟».

كنت أريد أن أقول لأنهما شريران، ولكن عدلت عن ذلك وهززت رأسي قائلة: «لا أعرف».

«لأن ذلك يفوق احتمال آدم. أن يذهب إلى الكرنڤال ليلاً، ففي ذلك الكثير من الإثارة والانفعال» بدأ صوت أمي يخفت وكأنها تتذكر شيئًا. قلت: «كان أحرى بالأمور أن تجري على ما يرام لو لم تتعطل لعبة الساقية».

هزت أمي رأسها.

قال أبي: «هاتي، حتى لو لم تتعطل الساقية فما ظنك بما كان سيحدث لو أن جدتك أو جدك صعدا لأعلى في أثناء الحفل ولم يجدا آدم في غرفته؟».

«لا أعرف».

قال أبي: «إنك لم تتدبري الأمر».

«حسنًا.. لم يفكر أحد في آدم. أنتم لا تفكرون فيه أبدًا».

قالت أمي بصرامة: «صدقيني. أنا دائمًا أفكر فيه»، سألتني جدتي: «فيمَ كنت تفكرين؟».

كان ذلك ليلة الأحد. كان آدم في البيت. كان أبي وأمي غاضبين مني ولم يكن مسموحًا لي بمغادرة المنزل حتى يوم السبت. والآن جاءت جدتي حيث كان ذلك دورها لتوبيخي.

فيمَ كنت أفكر؟ كيف أقول لجدتي عن الذي كنت أفكر فيه.

«اعتقدت أن آدم كان يود أن يمرح ليلة أمس». قلت ذلك وأنا أتململ في مجلسي.

«هل اعتقدت أنك تفهمين أكثر مني ومن جدك؟». رفعت كتفي وقلت: «ربما»، ثم رأيت وجه جدتي وقد ارتسمت عليه القسوة: «آدم يريد أن يمرح مثل الآخرين» قلت لها واستطردت: «ولكنكما تخبئانه في حجرته. أنتِ وجدي تريدان أن تعيشا حياتكما وأنتما تتظاهران بأن آدم ليس لديه مشاكل».

صاحت جدتي وهي تصفق المائدة بكفها بشدة، لدرجة أنها أوقعت طبقًا من الخزف على الأرض: «هاتي» فنظرتُ إليها وهي تجلس بأدبها المتكلف في حجرة المعيشة ورجلاها متشابكتان عند الكاحلين. كانت ترتدي بزة صيفية زرقاء ومعها قفاز وقبعة عليها طائر صغير.

قالت جدتي مرة أخرى وهي تنحني لتلتقط الطبق: «هاتي». وعندما وضعته بحرصٍ على المائدة أكملت قائلة: «أنا لا أعرف كيف واتتك خطة أمس، إلا أن فكرة وردت على خاطري؛ ولهذا فأنت محرومة من الذهاب إلى الكرنڤال مرة أخرى».

«ما هذه الفكرة؟».

«إنك لم تتصرفي هكذا إلا بعد أن تعرفتِ إلى فتاة السيرك».

«ليلا؟ ولكن ذلك ليس غلطة ليلا».

«بعد إذنك يا هاريت. أنا لا أزال أتكلم».

«آسفة».

«كلمتي واحدة: لا كرنڤال بعد اليوم».

«لكن ليلا لا تملك هاتفًا؛ يجب أن أراها حتى أقول لها».

نظرت إليَّ جدتي بحدة، لدرجة أنني توقفت عن الكلام، تلك هي كلمتي الأخيرة، وقالت وهي تقف: «كان من الممكن أن تكون ليلة أمس أسوأ كثيرًا يا هاتي. أنت لا تعلمين».

نظرت بغضب إلى جدتي وبعد لحظة قلت: «هل يمكنني رؤيته؟!» بدا على جدتي الحيرة فقلت: «آدم، هل يمكنني رؤية آدم؟ أريد أن أطمئن عليه».

«هو على ما يرام إنه يحتاج إلى بعض الوقت ليهدأ، لا أريدكما أن تريا بعضكما بعضًا الآن».

«حسنًا» قلت ذلك وقفزت من المقعد وعدوت إلى حجرتي وصفقت الباب ورائي.

لم تكن هناك جدوى من مناقشة أبي وأمي في أمر عقاب جدتي. فلن يقفا أمامها. لم يفعلا ذلك قط من قبل؛ ولذلك قررت ألا أكلم جدتي أو جدي أو والدي.

ما فعلته أنا وليلا كان خطأ، ولكنني الآن أكابد أمورًا مختلفة تمامًا؛ أمورًا تتعلق بآدم وبالكبار وأمورًا حدثت قبل أن أولد، وربما حتى قبل أن يُولَد آدم وأمي وخالي هايدن.

إنني أكره أسرتي.

الأربعاء كان اليوم الذي وصلت فيه عائلة ستروسكي. كنت أجلس على درج الشرفة الأمامية لمنزلنا وأنا أمضغ خصلة من شعري ممتنعة عن مساعدة كوكي في المطبخ، أفكر في آدم وأحواله في البيت الكبير مع جدتي وجدي، كنت أتمنى لو مات أبي وأمي وجدي وجدتي وأن أستطيع أن

أعيش مع آنجيل ڤالنتين التي قررت بعد تفكير عميق أنني أستطيع التعايش مع جمالها. كنت أيضًا أحاول أن أؤلف في رأسي خطابًا موجهًا إلى ليلا وأفكر في عنوان الكرنڤال.

كنت أجلس على أول الدرج، أمضغ وأحملق عندما جاءت سيارة فورد أكثر قدمًا وبها صدمات أكثر من سيارتنا وتوقفتْ في نهاية الممشى. كان قائدها امرأة وبجانبها فتاة تزاحمها وفتى، أما باقي السيارة فكان مزدحمًا بالصناديق وحقائب السفر.

خرجت المرأة من السيارة وكانت تمسك بقطعة من الورق في يدها. نظرت إلى الورقة، ثم إلى البيت، ثم مرة أخرى إلى الورقة، ثم أغلقت باب السيارة وانحنت وقالت شيئًا عبر النافذة للأولاد.

أخرجت خصلة الشعر من فمي ووقفت عندما رأيت المرأة تتجه إلى المنزل، وكانت تضع يدها أعلى رأسها لتستظل من الشمس.

صاحت: «مرحبًا. هل هذا بنسيون أوين؟».

قلت: «نعم».

«هل تقيمين هنا؟».

«نعم».

«هل تعلمين إن كانت هناك غرف للإيجار؟».

قلت: «حسنًا.. في الحقيقة لا. كل الغرف مشغولة، هناك فقط غرفة الضيوف، وتلك صغيرة جدًّا».

أنزلت المرأة يدها واستدارت وهي تقول: «أوه!». نظرت مرة أخرى إلى السيارة ورأيت الفتى والفتاة يراقبان من خلال النافذة المفتوحة.

قلت لها: «انتظري، من الأفضل أن تتكلمي مع والديّ» كان ذلك يعني أن أتكلم أنا معهما. وأنا لم أنبس ببنت شفة معهما منذ ثلاثة أيام. كنت غاضبة من أمي أكثر من أبي؛ ولذلك ذهبت إلى الاستوديو الخاص به في الدور العلوي وقرعت الباب وأنا أصيح: «هناك من يريد أن يراك في الدور السفلي.. إنها تريد غرفة».

عندما رجعت إلى الشرفة كانت المرأة تجلس على مقعد والفتى والفتاة يجلسان معًا على الأرجوحة، كان يبدو على الفتاة أنها في مثل سني، أما الفتى فكان أصغر بعض الشيء، لم أر من قبل مثل احمرار لون شعرهما ولا مثل وجهيهما الحزينين. كان ثلاثتهم صامتين تمامًا وهم ينتظرون.

قلت: «سيأتي أبي حالاً».

وبعد ثلاث دقائق جاء أبي من الباب ووراءه أمي. كان أبي يمسح يديه في سرواله وأمي تمسح يديها في مئزرها.

قال أبي: «أنا جوناثان أوين وهذه زوجتي دوروثي. كيف نستطيع مساعدتك؟».

وقفت المرأة، مدت يدها إلى أبي وقالت: «اسمي باربارة ستروسكي وهذه ابنتي كاثرين وابني سام» أشارت السيدة ستروسكي إلى الطفلين اللذين نظرا لأعلى ولكنهما لم يبتسما. «نحن... نحن في حاجة إلى مكان نقيم فيه لفترة، نحن فقط...» واغرورقت عيناها بالدموع.

قالت أمي وهي تأخذ بيدها: «لماذا لا تدخلين إلى المنزل؟ هاتي، اجلسي في الخارج مع كاثرين وسام وقدمي لهما عصير الليمون».

في المساء كانت عائلة ستروسكي قد انتقلت إلى البيت وأقاموا كلهم في غرفة الضيوف. نامت السيدة ستروسكي وكاثرين في الفراش الكبير، بينما نام سام في فراش صغير كان في غرفة السطح.

بدأت الآن أتكلم مع أبي وأمي. كان يجب أن أتكلم معهما؛ إذ كنت أريد أن أعرف قصة عائلة ستروسكي.

كانت قصة حزينة. كانوا يعيشون في ميريلاند حتى يومين مضيا. لكن السيد ستروسكي توفي فجأة هذا الصيف، وقررت السيدة ستروسكي أنها لن تستطيع أن تواصل الحياة في بيتهم القديم وبلدتهم القديمة. فشحنت السيارة بمتاعهم واتجهت إلى الشمال بحثًا عن مكان يمكن لها ولكاثرين وسام أن يبدءوا فيه من جديد.

قالت أمي: «إنهم لا يعرفون أحدًا هنا، وليس لديهم نقود، سوف تبحث السيدة ستروسكي عن عمل».

سألت: «لماذا أتوا إلى ميلرتون؟ هل سيمكثون هنا؟!».

رفع أبي كتفه: «ليسوا واثقين بعد. أعتقد أنهم ينتظرون حتى يعرفوا ما إذا كانت الأمور ستسير على ما يرام. لقد أخبرناهم أنهم يستطيعون أن يقطنوا في الغرفة بلا أجر لمدة شهر حتى يقرروا ماذا يريدون أن يفعلوا».

أضافت أمي: «ستبدأ السيدة ستروسكي رحلة البحث عن وظيفة من الغد».

اعتقدت أن معنى هذا أن كاثرين وسام سوف يصولان ويجولان في المنزل في أثناء غياب أمهما، ولكنني كنت مخطئة. كنت أراهما فقط في أثناء الوجبات. كانا أهدأ طفلين رأيتهما.

لبقية الأسبوع كانا منعزلين وكنت أنا منعزلة. أخذت أفكر في آدم. لأول مرة منذ مجيئه إلى ميلرتون، بدأت أتساءل عما يفعله في البيت طوال اليوم. أخذت أحاول تذكر الميعاد الذي تُعرَض فيه حلقات (أنا أحب لوسي» في التلفزيون. إنني واثقة أن آدم يشاهدها، لكن ماذا يفعل غير ذلك؟ وكيف يتصرف وهو في المنزل؟ عمَّ يتكلمون هو وجدتي وجدي؟ هل يتكلمون معًا؟ أدركت أني أعرف خالي بالكاد.

وفي نفس الوقت أدركت فجأة أني وآدم متشابهان لدرجة أننا يمكن أن نكون أخًا وأُختًا.

الفصل الثامن عشر

عقاب والديّ سوف ينتهي يوم السبت؛ ولذلك فمسموح لي أن أغادر المنزل. لكن عقاب جدتي لا نهاية له على ما أظن؛ ولذا لا أستطيع الذهاب إلى الكرنڤال.

في ذلك الصباح، تنبأ مذيع نشرة الطقس أنه سيكون صباحًا حارًّا ومن أشد أيام الصيف حرارة. في ساعة الظهيرة أشار الترمومتر إلى أن درجة الحرارة وصلت إلى 102 كان ذلك في ضوء الشمس؛ ولذلك توقعت أن تكون درجة الحرارة في شرفتنا حوالي 99 أو 100. أخذت آيس كريم جرانيتا من المبرد وجلست على الأرجوحة في الشرفة وأنا أحاول أن أقرر ماذا سأفعل؛ لأن صندوق آدم في جيبي ورنين النقود يصدر منه، أستطيع أن أسير إلى وسط البلدة، ولكن الحرارة شديدة ولا يروق لي الآن التحدث إلى عائلة ڤينش أو السيد شوكارد أو السيدة موور.

على أية حال، الشيء الذي أريد فعله بالتأكيد هو رؤية آدم، لكنني لا أعرف إذا كان مسموحًا لي أم لا.. والشخص الوحيد الذي يمكن أن يقول لي إن كان ذلك ممكنًا هو جدتي، وأنا لا أريد أن أكلمها.

كان البيت هادئًا جدًّا. ذهب أبي وأمي إلى محل البقالة، والآنسة هاجرتي كانت تتقيَّل في حجرتها، أما السيد بني فكان في الخارج ولم أعرف أين هي آنجيل ڤالنتين. كنت أسأل نفسي عما تفعله عائلة ستروسكي عندما فُتِحَ الباب السلكي بهدوء وخطت كاثرين عبره إلى الشرفة.

قلت لها والجرانيتا تسيل بين أصابعي: «أهلًا!».

أجابت: «أهلاً» وللحظة ترددت واعتقدت أنها سترجع إلى الداخل، لكنها بدلاً من ذلك جلست بحرص على طرف أحد المقاعد.

كانت تلك تمثل مرة من المرات التي لا يطرأ فيها على ذهني شيءٌ أقوله، ولاحظت أن كاثرين ليس عندها شيء تقوله كذلك. أعتقد أنها ربما تكون أكثر خجلاً مني.

قلت أخيرًا: «لقد رأيتك بالكاد منذ يوم الأربعاء الماضي».

«كنت أرعى سام في أثناء غياب أمي».

«لكنكِ مسموح لكِ أن تغادري الحجرة. أتعلمين ذلك؟ هناك تلفزيون في حجرة المعيشة، ولو ذهبت إلى الخارج فستجدين أرجوحة في الفناء الخلفي قد يستخدمها سام».

ابتسمت كاثرين ابتسامة خفيفة: «حقًّا؟».

«بالطبع».

«حسنًا.. شكرًا».

«عفوًا. كنت أتساءل، فلعلك تكونين هنا عندما تبدأ المدرسة.. ما الصف الذي ستذهبين إليه؟».

أجابت كاثرين: «السابع».

«وأنا كذلك؛ إذن ربما نكون في نفس الفصل»، وفي أثناء تأملي خصلات شعر كاثرين الحمراء التي كانت في لون البرتقال اللامع جدًّا، عندما رأيت عبر كتفها شخصًا يتبختر وهو يصفر على الممشى الأمامي لمنزلنا فصحت: «آدم!».

قال: «مساء عظيم لك يا هاتي أوين!».

كان آدم في حالة مزاجية جيدة. كنت أستطيع أن أعرف ذلك وكنت مندهشة لأنني في آخر مرة رأيته كان يرفس ويضرب والشرطة تجذبه إلى السيارة. ابتسم ولوح بيديه، ورأيت معه طاقة من الزهور، والتي رأيت في آخر الساق آثار الجذور والطين، فقلت لنفسي لقد اقتلعها لتوّه من حديقة جدتي.

قفز آدم على درجٍ الشرفة ووقف أمامي. كان يرتدي بذلة وربطة عنق. كان يبدو وسيمًا للغاية ولكنه يكاد يصل إلى درجة الغليان من شدة الحرارة؛ لأنه كان يرتدي بذلة الشتاء الصوف.

فتح فمه، ولكن قبل أن يتكلم وقفت كاثرين وقالت: «من الأفضل أن أذهب»، ثم اختفت من خلال باب الشرفة.

نظر آدم إليها وهي تختفي للحظة ثم استدار وقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «اليوم يوم بديع، من أفضل الأيام، يوم مخصوص، يوم ساطع يا هاتي؛ ولذلك جئت لزيارة الآنسة آنجيل ڤالنتين. أهي في المنزل؟». قلت لنفسي: أوه! فالأزهار لآنجيل.

ابتسمت ابتسامة عريضة لآدم وأنا أحاول أن أتجاهل الطين الذي يتساقط من الجذور على حذائه الرياضي اللامع.

قلت: «آه، آدم. لست متأكدة. هل تحب أن تنتظر هنا حتى أقرع باب غرفتها؟».

أجاب آدم: «شكرًا جزيلاً يا مدموزيل، لكنني سوف آتي معك».

انتظرت لحظة ويدي على مقبض الباب. لم أكن واثقة من أن آنجيل في المنزل، حتى لو أنها في المنزل فربما تكون نائمة. كنت أعرف أنها تستيقظ متأخرةً في صباح آخر الأسبوع، وكنت على وشك أن أخبر آدم بذلك عندما أزاحني جانبًا بدفعة صغيرة وفتح الباب السلكي وسار في الردهة.

«هيا يا هاتي، ولكن سيري بحرص وبهدوء نحن لا نريد أن نُوقظ السيدة ترمبول، وريكي الصغير مزعج بما فيه الكفاية». أخذ يصعد الدرج تاركًا وراءه آثار الطين لنتبعه.

جريت وراء آدم غير الهادئ على الإطلاق. عندما وصلنا إلى حجرة آنجيل مددت يدي لأطرق الباب. لم أكن، حتى، قد لمست الباب عندما دفع آدم يده من تحت ذراعي، وأدار المقبض ليفتح الباب على مصراعيه.

كانت لا تزال نائمة على ما أعتقد، لكن أدركت بعد حين أنها ترتدي ملابسها أو أنها تقريبًا ترتديها، ثم رأيت هنري بجانبها في الفراش مرتديًا السروال بلا قميص.

«آه، يا ربي!» قلت وأنا ألهث.

لم تقل آنجيل شيئًا. لقد وقفت على قدميها وهي تقفل أزرار القميص.

نظرت إلى آدم. كان ينظر إلى آنجيل فاغرًا فاه مثل شخصيات الرسوم المتحركة، وكنت أستطيع أن أدرك ما يفكر فيه تمامًا؛ كنا متشابهين أنا وآدم.

كانت أفكارنا متشابهة لدرجة أن أفكاره كانت تدور في ذهني الآن. كان آدم يفكر في أنه أخيرًا رأى صدر آنجيل بلا ثياب تغطيه في تلك اللحظة. كان مفتونًا بأصابعها وهي تتحسس أزرار قميصها، كان يشعر بالرضا بنسبة عشرة في المائة؛ لأنه فاجأها متلبسة بفعل شيء لا يليق أن تفعله في منزلنا، ويشعر بالفزع من تصرفه السيئ بدرجة عشرين في المائة وبنسبة سبعين في المائة بالإثارة والذي حظرناه عليه.

شعرت بجفاف في حلقي وبدأ قلبي يخفق. لم أستطع أنا أيضًا أن أحوّل عيني عن آنجيل ومن النظر إلى هذا المشهد الذي أثار خبلنا، هذا الشيء الذي يمارسه العشاق في الخفاء.

أخذ آدم يحدق إلى آنجيل لمدة طويلة جدًا، لدرجة أنني خفت أن يقتحم الحجرة، لكنه لم يفعل، وبدلاً من ذلك رأيت الزهور وهي تقع من يده ثم أصدر صوتًا مخيفًا، وجرى عبر الردهة إلى أسفل.

اتبعته مباشرة وصحت:

«هاي ! هاي!».

لم يتوقف آدم. كان قد وصل إلى أسفل الدرج.

ترددت للحظة ثم استدرت جهة حجرة آنجيل، ووصلت إليها في الوقت الذي كانت فيه على وشك أن تغلق الباب؛ فوضعت قدمي في الفتحة.

بدأت آنجيل تقول: «ماذا...».

نظرت إلى قميصها المجعد وشعرها المنكوش، ونظرت عبر فتحة الباب فرأيت هنري يجلس شبه عارٍ على الفراش. لم تسعفني الكلمات، فأزحت قدمي وجذبت الباب بقوة شديدة، لدرجة اهتزت معها الجدران.

ثم جريت وراء آدم.

أخذت أتفحص الشارع أمام البيت، لكنني لم أجد أي أثر له، إلا أنني كنت واثقة أنه اتجه إلى منزله؛ ولذلك عدوت إلى بيت جدتي وجدي، وبينما أتجه إلى الناصية التي تؤدي إلى منزلهما رأيت آدم وهو يندفع عبر الباب الأمامي إلى الداخل.

كنت ألهث وأتصبب عرقًا، وأحسست أنني على وشك الانزلاق ولكن لم أتوقف عن العدو. قرعت جرس البيت ثم أدرت المقبض قبل أن يأتي أحد ليفتح لي. كانت جدتي تقف في الردهة ويداها على السور، وهي تنظر إلى أعلى الدرج ناحية الطابق الثاني للمنزل.

ثم استدارت عندما أغلقت الباب ورائي.

قالت والخوف يبدو عليها: «ماذا يحدث يا هاتي؟».

حاولت التقاط أنفاسي، وقلت: «جاء آدم ليرى آنجيل ثالنتين فذهب إلى الطابق العلوي وفتح باب غرفتها دون أن يقرعه، وكانت آنجيل هناك مع صاحبها وهو مضطرب للغاية لأنه كان سيهديها زهورًا».

«وما الذي جعلك تصحبين آدم إلى الدور العلوي يا هاتي؟».

«حسنًا».

«من المفترض أنكِ تحسنين التصرف».

نظرت إلى جدتي ثم قلت أخيرًا: «إنك دائمًا تقولين ذلك، الكل يقولون ذلك، لكن لماذا لا تحسنين أنتِ التصرف مع آدم، إنه ابنك؟».

«هارييت!».

والذي لم أنطق به كان الشيء المريع الذي فكرت فيه وقتها، وهو أنني كان يجب أن أحسن التصرف؛ إنني وآدم متشابهان لدرجة أنني في معظم

الأحيان الآن أعرف فيمَ عساه أن يفكر. إنني مثل آدم، ومع ذلك لا أريد أن أكون مثله.

زمَّت جدتي شفتيها، ثم أزاحت خصلة من شعرها الرمادي، ورأيت يدها ترتعش، وقالت بهدوء: «هاتي، إنك لا تفهمين آدم».

«لكنني أفهمه».

فتحت الباب الأمامي لمنزل جدتي.

سألتني: «إلى أين تذهبين؟».

قلت لها: «إلى الكرنڤال. أنت لست أمي ولا أبي، ولست مجبرة أن أطيعك».

صفقت الباب ورائي، وجريت عبر الحديقة وقد حان الوقت لأكلم ليلا.

الفصل التاسع عشر

أول شيء لاحظته عندما وصلت إلى كرنڤال فريد كارميل أن ساحة انتظار السيارات كانت خالية تقريبًا.

حسنًا، ربما أن الكل هنا قد زار الكرنڤال، مع أن اليوم يوم السبت.. ثم رأيت حصانًا خشبيًّا أمام المدخل، وقفت عنده وأخذت أنظر إلى الأمام.

كان ذلك يومًا غريبًا. كان البيت هادئًا هذا الصباح، والكرنڤال الآن هادئ جدًّا.

رفعت يدي التي تتصبب عرقًا فوق عيني، لم أستطع رؤية الكثير، ولكن بعد لحظة سمعت صوت طرْق كصوت عمال وهم يشتغلون، ثم رأيت شاحنتين تسيران على أرض الكرنڤال؛ حيث كانت المرة الوحيدة التي رأيت فيها سيارة على أرض الكرنڤال ذلك اليوم الذي جاءت فيه سيارة الإسعاف لاصطحاب آدم في عطلة نهاية الأسبوع الماضية.

كان الحصان الخشبي قد وُضعَ بمثابة حاجز؛ ليمنع الناس من دخول الكرنڤال، ولكنني تسلقته رغم ذلك.

لا أعتقد أن أحدًا سيمانع أنني جئت لأبحث عن ليلا. لم أسر لمسافة بعيدة حتى أدركت السبب وراء الهدوء الذي يعم الكرنڤال. كان يغلق لينتقل إلى مكان آخر.

كانت الألعاب لا تزال في مكانها، أما ألعاب المسابقات فكانت الأكشاك الخاصة بها فارغة تقريبًا، وكانت الجوائز المعلقة على الجدران قد أُنزل معظمها، وكان أقارب ليلا الأناس الوحيدين الذين يتجولون في المكان هم والعمال. وكانوا منشغلين بإنزال الأشياء وشحنها، لدرجة أنهم لم يلحظوا وجودي.

كنت أحس بانقباض في صدري أثناء سيري في اتجاه سيارة عائلة «كان». أخذت أسير وأسير، لكنني لم أجدها وأنا واثقة من أنني أقف في المكان الذي يفترض أن تكون فيه السيارة تمامًا، ورحت أفكر في أن السيارات ربما انتقلت إلى مكان آخر في أرض الكرنڤال. كنت أتساءل عن مكانها عندما سمعت أحدهم ينادي اسمي.

«هاتي!».

رأيت جيسي - عم ليلا- يسير باتجاهي وفي يده مطرقة.

صحت: «مرحبًا، لقد كنت أبحث عن ليلا، أرجو ألا يكون هناك مانع من دخولي هنا».

أجاب جيسي: «ما من مشكلة. لكن ليلا لم تعد هنا»..

فانقبض صدري أكثر، وقلت: «ماذا تقصد؟».

«لقد رحلوا إلى ميريلاند قبلنا».

«قبلكم؟».

«سينتقل الكرنڤال إلى خارج مدينة بشستا على مدى الأسبوعين القادمين. سوف نغلق هنا ونذهب في الغد، لكن ليلا ولامار وعائلتهما غادروا أمس، سوف يقومون بزيارة خالة ليلا ليومين قبل الافتتاح».

لم أستطع أن أتدبر كلمة لأقولها.

قال جيسي: «هاتي؟».

هززت رأسي. لم أكن أريد أن أبكي أمامه، بدأت أركض.

سمعت جيسي ينادي: «هاتي!».

أخـذتُ أعدو وأعـدو وأعـدو. عدوت عبر الكرنڤال وساحة انتظار السيارات، وكل الطريق حتى حديقة «ماركوند» التي لو حالفني الحظ لما وجدت فيها أحدًا يجلس على المقعد المواجه لبركة البط، وسوف أختلي بنفسي لبرهة.

لم تكن الحديقة مهجورة مثل الكرنڤال، ولم تكن مزدحمة. كان الطقس حارًا جدًا. انزلقت على المقعد الفارغ وأخذت أراقب البط وهو يسبح في المياه العكرة.

كلمات أخذت أفكر فيها: اللعنة على جدتي.

لم ترِد تلك الكلمات على فكري قطُّ من قبل. ولكن ها هي ذي، فليلا قد غادرت المكان، وما استطعت أن أودعها، ولم يتسنَّ لي أن أشرح لها لماذا لم أرها طوال الأسبوع الماضي. كان ذلك خطأ جدتي. تُرى، هل تعتقد ليلا أنني غاضبة منها؟ هل تعتقد أنني ألومها على ما حدث؟

شعرت بوخز الدموع في عيني، ولكني لم أُجز لها أن تتساقط حتى تأكدت أنه لا يوجد أحد حولي، حتى إن البط قد أعطاني ظهره. جلست هناك وأخذت أبكي وأبكي ما استطعت في هدوء، وأخيرًا مسحت عيني وأنفي بظهر يدي، كما لو كنت في الثالثة من عمري.

الشيء الوحيد الذي جعلني أشعر بتحسن طفيف هو إدراكي أن عم ليلا وباقي العائلة لا يزالون في ميلرتون، وأنهم سيبقون بالتأكيد حتى الغد؛ أي باستطاعتي أن أكتب خطابًا إلى ليلا لأقول لها كل شيء. أقول لها وداعًا وإنني سأفتقدها، أقول لها إنها من الأصدقاء القلائل الذين صاحبتهم، وأستطيع أن أعطي الخطاب لجيسي في الصباح، فيسلمه لها في ميريلاند.

جلست هناك لوقت طويل وأنا أخطُّ الرسالة في رأسي: «*عزيزتي ليلا، لم تسمح لي جدتي برؤيتك الأسبوع الماضي، لكونك فتاة سيرك، ولم أستطع مكالمتك؛ لأنه ليس لديكم هاتف، ولم يسبق لي قطُّ أن دعوتك لمنزلنا؛ ولذلك فأنت لا تعرفين أين أسكن*».

أي نوع من الصديقات أنا وليلا؟ على أية حال كنت، وأي نوع من الصديقات أنا؟

تنهدت ونظرت حولي باحثةً عن شيء أرميه للبط فوجدت قطعة خبز لم يرها أحد. رميت بها في البركة، ولكني لم أبق لأراقب البط وهو يكتشفها، سرت في طريقي إلى المنزل سالكةً أطول طريق ممكن، بعد أن كنت واثقة تمامًا من أن جدتي قد اتصلت بوالديّ لتخبرهما بما فعلت، ولتقول: «ما الذي كانت تفكر فيه هاتي؟» طريقي الطويل جدًّا ساقني بعد حين إلى طريق يتقاطع مع شارع جدتي وجدي. عندما وصلت إلى

ناصية شارعهما قلت في نفسي إنني سوف أنظر أمامي مباشرة، ولن ألقي نظرة واحدة إلى منزلهما. لكن سيارة شرطة دارت حول الناصية، وكان عليَّ أن أرى إلى أين تتجه. وقفت عند الحافة وأخذت أراقبها، وقد توقَّفت عند الممشى المؤدي إلى منزل جدي وجدتي. وقفز من مقعد الركاب رجل شرطة حتى قبل أن يطفئ محرك السيارة، وصفق الباب وركض على الممشى فقابله جدي لدى الباب.

لا أعرف ما إذا كان سيرحب بي عند منزل جدي وجدتي الآن، ولكن كان يجب أن أعرف ما يحدث. وصلت إلى الباب الأمامي في الوقت الذي وصل فيه رجل الشرطة الذي كان يقود السيارة عند الدرج في قفزة واحدة.

قلت: «جدي؟».

كان جدي يقف في المدخل يتكلم مع الضابط، أما جدتي فكانت تتحرك وراءه في الردهة.

صاحت جدتي: «هاتي! الحمد لله».

قلت: «ماذا؟ ماذا؟».

سألني جدي: «هل رأيتِ آدم؟».

«آدم؟ أعتقد أنه رجع إلى البيت».

قالت جدتي: «نعم.. لقد فعل ذلك، لكنه غادر المنزل بعد ذلك بقليل، وكان مضطربًا جدًّا.. لقد كلمت والديك، إنهما لم يرياه طوال اليوم، وقد اتصلت بكل مكان، وكنت آمل أن يكون معكِ».

«لا. أنا لم أره أيضًا، أقصد منذ أن جاء إلى هنا».

سأل جدي وهو يمسك كتفي بشدة لدرجة أوجعتني فابتعدت عنه: «أين كنتِ طوال اليوم؟».

«لقد... لقد ذهبت إلى الكرنڤال أولاً، لكنه أُغلق» نظرت بغضب إلى جدتي «ثم ذهبت إلى حديقة ماركوند، ثم أخذت أسير في البلدة».

«ولم تَرَ آدم في أي مكان؟» سألني أحد الضباط فقلت: «لا».

نظر رجال الشرطة وجدتي وجدي إلى بعضهم البعض.

قال أحد رجال الشرطة وأخرج مفكرة صغيرة من جيبه: «أعتقد أنه من الأفضل أن ندلف إلى الداخل أيها السيد ميرسر».

قالت جدتي: «هاتي، اذهبي إلى المنزل، اذهبي إلى المنزل مباشرة».

قلت: «حسنًا».

كان آدم راشدًا، وبشكل رسمي لم يغب المدة القانونية التي يُعتبر بموجبها من المفقودين على الجانب الآخر، فآدم هو آدم. وهو ابن هايدن وهاريت ميرسر؛ ولذلك راح يبحث عنه مباشرة. ذهب رجال الشرطة بسيارتهم، وأخذ أبي وأمي يبحثان عنه بسيارتهما الفورد.

قيل لي أن أبقى في المنزل.

سألت الآنسة هاجرتي في أثناء تناولنا الشاي في غرفتها: «لمَ لا أذهب معهما؟».. كانت الآنسة هاجرتي قد قامت بإعداد الشاي هذه المرة، وأخذت تقول لي: «إن الشاي مهدئ ومريح للأعصاب في أوقات الشدة».

كان الوقت متأخرًا في المساء، وكانت كوكي قد انتظرت إلى ما بعد وقت انتهاء عملها حتى تجهز العشاء للسيد بني والآنسة هاجرتي وعائلة ستروسكي ولي أيضًا.

لاحظت أن آنجيل ڤالنتين ليست موجودة.

أجابت الآنسة هاجرتي: «أنا متأكدة أن والديك يريدانك أن تكوني بالبيت عند ظهور آدم هنا».

لم أكن واثقة من ذلك. أعتقد أن جدتي قررت أنه لا يتوجب عليَّ أن أتحمل مسئولية آدم. أعتقد أنها تريدني بعيدًا عن طريقها.

«الآنسة هاجرتي. ما خطب آدم؟».

وضعت الآنسة هاجرتي فنجان الشاي وأخذت تنظر إليَّ لمدة طويلة «هل تعلمين؟ إنني لست واثقة يا عزيزتي، لا أعتقد أن أحدًا أخبرني من قبل، إنه... غريب فحسب». دقت الآنسة هاجرتي على جانب رأسها بخفة قائلة: «أعتقد أنكِ يمكنك القول بأنه مريض عقليًا».

تنهدت، غريب، مريض عقليًا. إن تلك الكلمات لا تساعد. قررت ألا أسأل الآنسة هاجرتي عن إمكان أن يورث المرض العقلي في العائلة.

عندما انتهينا من تناول الشاي كان الوقت قد حان لتشرع الآنسة هاجرتي في نظام التجميل الخاص بها. أخذت الفناجين إلى المطبخ، وبعد ذلك جلست في الشرفة الأمامية وأخذت أراقب القمر، لم أكن متيقنة تمامًا من أن آنجيل ڤالنتين ليست في المنزل. ووددتُ لو تكلم أبي وأمي معها بصرامة عندما تعود.

كنت لا أزال أراقب القمر عندما فتح الباب الأمامي وجاء أحدهم وجلس بجانبي على الأرجوحة.

«كاثرين».

قالت: «آسفة لما حدث لخالك».

نظرت إليها قائلة: «شكرًا» ولا أعرف مقدار ما تعلمه عن آدم.

«إن لديه بعض المشاكل!».

«أنا متأكدة أنهم سيجدونه عن قريب».

«أرجح ذلك».

أخذت كاثرين تتطلع معي إلى القمر.

أخيرًا قلت: «أنا آسفة لما حدث لأبيك».

«لقد داهمته أزمة قلبية. ذهب إلى العمل كالمعتاد ثم وجده مديره مستلقيًا على المكتب. كان قد مات».

أومأت برأسي، وقد اكتشفت أنا وكاثرين معًا كيف يمكن لعالمنا أن يتأرجح بسرعة مما هو مريح ومألوف إلى ما هو غير متوقع ومرعب.

في الساعة التاسعة والنصف نادت السيدة ستروسكي على كاثرين لتدخل، أما أنا فمكثت في الخارج على الأرجوحة، وأنا أنظر كل خمس دقائق إلى ساعة يدي. كانت الساعة العاشرة والربع، ولا يزال أبي وأمي خارج المنزل. أخيرًا ذهبت إلى أعلى لأنام. كنت على وشك الاستغراق في النوم عندما سمعت الباب يُفتَح وضوء الردهة يقع على وجهي.

قالت أمي: «هاتي؟».

جلست وأنا مستيقظة تمامًا: «هل وجدتماه؟».

ظهر أبي وراءها في المدخل. دخلا الحجرة، وحتى قبل أن يجلسا على فراشي أدركت أنهما يحملان إليَّ أخبارًا، وأنها سيئة جدًّا.

وضعت يديَّ على أذنيّ وقلت: «لا تقولا لي. لا أريد أن أسمع».

برفق بالغ جذبت أمي يديَّ ثم أخذتني في حضنها، وشعرت بأبي يمسح رأسي.

قالت أمي: «لقد عثر البوليس على آدم».

«مات، أليس كذلك؟».

لم تجب أمي وأحسست بدموعها وهي تسقط على خدي.

قال أبي: «نعم يا هاتي».

«ماذا حدث؟».

«لقد شنق نفسه في السقيفة التي وراء بيت جدتك وجدك». كنت حزينة ولكني لم أندهش.

الفصل العشرون

جلس خالي هايدن في حجرة المعيشة وهو يمسك بغليونه بين أسنانه. كانت تفوح منه رائحة مثل رائحة محل كلاين؛ حيث يبيعون السجائر والتبغ.

في الليلة التالية وبعد العشاء مباشرة، ذهبت أمي لتفتح الباب عندما سمعتها تقول: «أوه يا ربي! هايدن».

أخرجت رأسي من باب حجرة الطعام ورأيت رجلاً طويلاً يقف في الظل وراء الباب السلكي، وشاهدت أمي تعبر الصالة الأمامية. بدأت بحركة بطيئة ثم أخذت تركض حتى وصلت إلى الباب الأمامي. وألقت بذراعيها حول أخيها، وأخذا يتعانقان لمدة طويلة.

لم نكن نتوقع أن يصل خالي هايدن بهذه السرعة.

لقد اتصلت أمي به في الليلة السابقة بعد الساعة الحادية عشرة، وقال إنه سيلحق بأول رحلة جوية إلى الشرق، ومع ذلك لم تتوقع أمي وصوله قبل يوم الإثنين.

لكن ها هو ذا هنا في يوم الأحد، في نهاية أطول أيام حياتي كان الوقت يمر بالطريقة نفسها التي كان يمر بها وأنا في السادسة من عمري عندما أصبت بالحصبة، وكان يجب أن أمكث في الفراش إلى الأبد. كل يوم بدا كأنه ثلاثة أيام، بل ستة، بل أسابيع. في الليلة التي وجدوا فيها جثة آدم ظللنا مستيقظين حتى الثانية صباحًا، وكان نصف البيت مستيقظًا معنا. سمعتنا الآنسة هاجرتي ونحن نتكلم فخرجت من حجرتها، والكريم الذي كانت تُطلِق عليه كريم التأخير على وجهها وشعرها ملفوف بمنديل قديم. هبطنا الدرج معًا، وجلست الآنسة هاجرتي مع أمي على الأريكة في حجرة المعيشة. في وقت لاحق استيقظت السيدة ستروسكي وجلست معنا. لم نتكلم كثيرًا. كانت أمي صامتة، لم تكن تبكي، ولكن بدا عليها الحيرة والحرج.

ثم جاءت آنجيل ثالنتين إلى البيت. أعتقد أنها كانت تأمل أن تتسلل إلى الداخل دون أن يلاحظها أحد، ولكنني لاحظتها وهي تصعد على أطراف أصابعها لأعلى ممسكة بحذائها في يدها. التقت السيد بني الذي سمع بالأخبار، وكان في طريقه إلى أسفل. قابل آنجيل وأخبرها بما حدث.

لم أستطع أن أسمع حديثهما. كل ما أعرفه أن آنجيل صعدت غرفتها، ولم نرها مرة أخرى حتى اليوم التالي.

قلت لأبي: «أرجو أن تخبرها بما فعلت، أرجو أن تخبرها بأنها قتلت آدم».

وضع أبي يده على كتفي، وقال برقة: «تعلمين يا هاتي أن هذا ليس صحيحًا».

أعرف ذلك، إلا أنه لم ينم أحد في تلك الليلة. في الصباح التالي أجبرت نفسي على القيام من الفراش في الخامسة والنصف؛ لأنه لم تكن هناك جدوى لبقائي مستلقية محدّقة إلى السقف أكثر من ذلك. كان ذلك يوم الأحد وقد بدأ الناس يتوافدون على منزلنا بعد أن انتهينا من وجبة الإفطار. ورغم أنه كان يوم عطلة كوكي فإنها جاءت، وكان ذلك شيئًا رائعًا؛ لأن الكل كان يحضر معه بعض الطعام. امتلأ المطبخ بالأواني الفخارية والكعك والفطائر، وحتى قدر القهوة.

أمسكت كوكي بزمام الموقف. أخذت تفرز الأكل لتلف بعضه وتضعه في البراد أو الثلاجة، ووضعت الباقي في أطباق، وأخذت تناول الأطباق السيدة ستروسكي وكاثرين حتى تدورا بها على الذين يأتون إلى حجرة المعيشة ليتكلموا مع أبي، ثم تأخذ الأطباق الفارغة لتغسلها.

وكانت أمي في حجرتها بالطابق العلوي، فمكثت بها حتى الظهر، وعندما اختلست النظر لأتأكد أنها بخير رأيتها تقف أمام المرآة وهي تتأنق مثلما تفعل يوم غداء البنات. حتى إنني استطعت أن أشم رائحة العطر.

سألتها: «ماذا تفعلين؟».

قالت: «يجب عليَّ أن أذهب إلى منزل جدتك وجدك. سوف يكون بيتهم ممتلئًا أيضًا».

كانت أمي تحدق بشدة إلى المرآة. كنت على وشك أن أقول لها إنها تبدو جميلة، ثم أدركت أنها لم تكن تنظر إلى نفسها، بل إلى الصور الفوتوغرافية التي تحيط بالمرآة. كانت هناك صور لي وأنا طفلة رضيعة، وأنا في المدرسة، وصور لها ولأبي معًا، وصورة لأبي وهو طفل

وأخرى لخالي هايدن في يوم تخرجه، وصورة باهتة لجدي وجدتي في الجريدة يوم إعلان خطوبتهما.

قلت لها: «أمي، أليس عندك أي صورة لآدم هنا؟».

قالت أمي:«هيه! أظن ذلك».

«لماذا؟».

ارتسم على وجهها تعبير عن الألم، ولكنها رفعت كتفيها. فكرت في سؤال أوجهه إليها، طالما راودني: «هل قمتِ بزيارة آدم وهو في المدرسة؟». لا أتذكر أن أمي قامت بأي رحلة.. لكن ربما فعلت وأنا صغيرة.

تنهدت أمي قائلة: «لا، جدتك وجدك كانا يزورانه من وقتٍ لآخر في أثناء رحلتهما إلى شيكاغو أو إلى ميلووكي وبعض المرات القليلة الأخرى. لكن جدتك طلبت إليَّ عدم الذهاب، كانت تقول إن ذلك سيضايقه».

عبست وقلت: «ألم تحبيه؟».

استدارت أمي بحدة ويدها مرفوعة وقالت: «هاتي، إياكِ أن توجِّهي إليَّ هذا السؤال مرة أخرى».

تراجعت إلى الوراء، فأمسكت أمي بيدي وقالت: «آسفة.. إنني آسفة.. لا تلتفتي إليَّ يا هاتي» ثم أضافت: «نعم، لقد أحببته، ولكنه كان من الصعب أن يُحَب.. هل تريدين أن تأتي معي لمنزل جدتك وجدك؟».

قلت وأنا أترك الحجرة: «في الحقيقة لا».

جاء بعد الظهر ومر على نفس النحو بلا انتهاء، مثل الصباح. وأنا أفكر في آدم بشكل متزايد.

أخذ طاجن تونة من جار لنا وأقول: «شكرًا» وفي مخيلتي أسمع صوت آدم وهو يقول: «أوه، هوه، هوه، هوه! طاجن تونة يا هاتي. طبق إلهي مناسب لملك. مناسب لملك. هاتي أوين».

يصبح سام في الفناء وهو يخاطب كاثرين، ولسبب أو آخر أجد نفسي في حجرة طعام جدتي، وآدم يضغط بقدمه على الجرس.

أفتح الباب الأمامي لضيف آخر وأرى السماء الصافية من الشرفة وأتذكر آدم وهو يهمس: «لأن أمي تقول إنها خدعة من خدع السيرك».

أغلق الباب السلكي، وتتجمع الدموع في عيني.

«ويكي لن يسمح للوسي بشراء قبعة جديدة يا هاتي أوين، يجب على لوسي أن توفر المال وتصنع ثوبها بنفسها يا هاتي. أوه!! إن حفلة عيد ميلاد إثيل لم تسر كما ينبغي. كتبت لوسي رواية هاتي أوين. كتبت لوسي مسرحية. كتبت لوسي أوبريت وغنى ريكي! أنا الأمير الطيب لاتسلوت أنا أحب أن أرقص وأغني كثيرًا».

كان صوته عاليًا في مخيلتي للدرجة التي كنت أريد بها أن أغطي أذني كما فعلت في الليلة الماضية، أغطيهما لمنع صوت آدم وصوت خالي الجديد وصوت أسرتي.

قلت بصوت عالٍ: «يا طفلي الكبير، هل تعلم؟ ما كان يجب أن تغادر بهذه الطريقة. أتعرف ذلك؟». ما كان يجب أن تتركنا على الإطلاق. لم يكن هناك داع لذلك.

حسنًا. ربما كانت هناك بعض الأسباب، لكنها لم تكن كافية بالقدر المطلوب.

في الساعة الخامسة بعد الظهر عادت أمي إلى المنزل وكانت كوكي لا تزال موجودة، أما أنا فكنت في حاجة إلى الراحة. استلقيت على فراشي، وهنا تذكرت رسالة ليلا. لم أكتبها ونسيت تمامًا أن أذهب إلى كرنڤال فريد كارميل هذا الصباح. كنت واثقة أنني لن أجد الكرنڤال الآن على الرغم من أن رحيله لن يكون مصاحبًا بموكب ودعاية مثل وقت مجيئه. فقط إزالة الأكشاك ثم الاختفاء.

وهكذا هي النهاية. ليست لديَّ أدنى فكرة عن كيفية الاتصال بليلا.

بعد ذلك بثلاث ساعات كنا قد انتهينا من العشاء ثم لحق ذلك الظهور المفاجئ لخالي هايدن. عانق أمي ثم عانق أبي وقال لي إنه بالكاد قد تعرَّف إليَّ، ثم قال لأمي: «كيف حال أمي؟».

رفعت أمي كتفيها. «ماذا تتوقع؟ بلا دموع».

قال هايدن: «التماسك التماسك والتحفظ بكل أنواعه».

كنت أريد أن أضحك ولم أكن أستطيع أن أعرف إذا كانت أمي هي أيضًا تريد الضحك، لكنها فجأة وضعت يدها على فمها وقالت: «أوه يا هايدن! لقد تذكرت الآن فقط، لا يسعُك المكوث هنا، يجب أن تذهب إلى أبي وأمي. لقد أخبرته عن عائلة ستروسكي وأننا لا نملك غرفة شاغرة، تذمر خالي هايدن. وهنا جلس في المقعد الوثير في حجرة المعيشة وهو يمسك بالغليون بأسنانه. بعد لحظة أخرج الغليون من فمه وأخذ يحدق عبر الغرفة إلى الفراغ، وعيناه مغرورقتان بالدموع. لا أعرف الكثير عن خالي هايدن. فقط أنه لم يتزوج قط وأنه يعمل

في إحدى شركات السينما الكبرى، ولم يجئ إلى ميلرتون قبل أن أُولد.

انحنت أمي على حافة المقعد الذي يجلس عليه خالي هايدن ودلكت كتفيه. نظر إليها وقال: «أخبريني مرة أخرى ماذا حدث؟». وشرعت أمي تقول: «لقد أغلقت المدرسة أبوابها».

أخو آدم لم يعرف أنه رجع إلى البيت، فهلَّا يتحدث كل أفراد عائلتي معًا؟

لكن خالي هايدن عاد. إنه هنا من أجل أمي وجدتي وجدي، ومن أجل آدم كما يفترض بالطبع.

كانت جنازة آدم ستقام يوم الثلاثاء، ظهر النعي في صحيفة ميلرتون يوم الإثنين. لم يذكر أي شيء عن هوية آدم.. فقط أنه الابن الأصغر لهايدن وهاريت ميرسر. وأنه كان يبلغ العشرين من عمره، لم يقل شيئًا عن اسم المدرسة التي عاش فيها طويلاً. لن يعرف أحد ممن يقرأ الجريدة شيئًا عن شيرلي تمبل ولوسي وهي تأكل القواقع، أو عن الزهور التي اقتلعها بجذورها وأُهديت -على أمل- إلى فتاة جميلة، ولن يعرف أحد آدم في الساقية أو أنه لُقب بالمجنون، أو عن نوبات الغضب التي كانت تنتابه.

كنت أريد أن يعرف الناس؛ ولذلك فقد اتصلت بجدتي وقلت: «جدتي، أريد أن أقول شيئًا في الجنازة غدًا».

«ماذا؟ تقولين شيئًا لمن؟!».

«أريد أن أتكلم، لا بد أن أتكلم».

«لكن يا هاتي».

«كان آدم خالي، وأريد أن أقول شيئًا عنه».

قالت جدتي: «حسنًا».

في تلك الليلة جاءت أمي إلى حجرتي، وبدأت تحرك الشماعات في دولابي إلى الأمام والوراء.

سألتها: «عم تبحثين؟».

«رداء أسود. أين الثوب الذي ارتديته في عيد الميلاد الماضي؟».

«إن الطقس حار لا يناسب ارتـداءه. إنه من قماش القطيفة وهو لا يناسبني».

لقد قررت أيَّ رداء ألبسه في الجنازة. سأرتدي الثوب الأصفر الذي ارتديته يوم حفل عيد ميلادي، لقد أخبرني آدم أنه يعجبه، ذكر لي أنه يعجبه، وبعد ذلك بخمس دقائق أكل الوردة من على الكعكة، وطُرد إلى الخارج. لم تناقشني أمي. وقفت أمام الدولاب بلا تعبير على وجهها، تتمتم بأنها لا تصدق أننا نتنافس فيما سنرتديه في جنازة آدم، وأنه ليس حتمًا على الأبناء أن يموتوا قبل آبائهم. وضعت ذراعي حول كتفها، فأسدت إليَّ ابتسامة صغيرة، وأمسكت بذقني للحظة ثم هرعت خارج الغرفة.

وضعت الثوب الأصفر على المقعد. أخذت أنظر حولي بحثًا عن صندلي الأبيض عندما رأيت آنجيل ڤالنتين تهرع عبر الردهة إلى غرفتها.

لم أكلم آنجيل منذ يوم السبت. لم تتناول وجبة واحدة معنا. وهي تتسلل من وإلى منزلنا كالفراشة الليلية لكنها توقفت يوم الأحد لتعرب عن أسفها لأمي وأبي لفقدهما آدم، وقالت شيئًا آخر لم أسمعه.

لا أصدق أنها سوف تشهد الجنازة.

الفصل الحادي والعشرون

كان الثلاثاء الثاني من أغسطس 1960 هو اليوم الذي دُفِنَ فيه آدم ميرسر، وكان يومًا رائعًا. قالت كوكي: «إنه يوم جنازة ألم تلحظي؟ في أيام الجنازات إما أن ينهمر المطر، وإما أن يعم ضوء الشمس، ولا يوجد وسط». لم أكن أعلم ذلك، ولكن ذلك الصباح كان صافيًا ودافئًا وجميلاً وقد هبَّت به نسمة خفيفة تهز أوراق شجرة الدردار خارج نافذة حجرتي، إنه يوم من تلك الأيام التي كان من الممكن أن تجعل آدم يصيح: «السعادة.. السعادة!».

في الساعة العاشرة والنصف ذهبت إلى حجرتي وأغلقت الباب ورائي في هدوء. أخذت أنظر إلى الثوب وحذائي الأصفر لمدة طويلة، ثم ارتديتهما، أرجح أن جدتي تريدني أن أرتدي قفازين، لكنني لا أريد ذلك. اتجهت أنا وأبي وأمي إلى الكنيسة الأسقفية في الحادية عشرة. كان السيد بني والآنسة

هاجرتي وكوكي، حتى السيدة ستروسكي ذاهبين إلى جنازة آدم، إلا أنهم سيلحقون بنا، حتى يتسنى لي أنا ووالداي أن نسير بمفردنا.

عندما وصلنا إلى الكنيسة، كانت ساحة الانتظار مليئة بالسيارات.

قلت بصوت خفيض: «واو!!».

عندما ينظم هايدن وهاريت ميرسر جنازة يشهدها الجميع.

كان هذا ظني حتى رأيت نانسي وجانيت ضمن الحضور. لم تكونا هناك بسبب جدي وجدتي. لقد حضرتا ببساطة بدافع الفضول. كانتا تريدان أن تشاهدا عائلة الرجل الغريب. كانتا تريدان أن تعرفا نوع جنازته، كما لو كان ذلك أحد العروض الجانبية في كرنڤال فريد كارميل. أخذت أتساءل ما إذا كان بعض معارف جدتي وجدي يفكرون بنفس الطريقة.

رآني أبي وأنا أنظر إلى نانسي وجانيت، ورآهما وهما تنظران إليَّ، ولاحظ ضحكاتهما المكتومة، فشبك أبي ذراعيه حول ذراعيَّ أنا وأمي، وسرنا معًا إلى الأمام وجلسنا في الصف الأول بجانب جدتي وجدي وخالي هايدن، شكلنا نحن الستة صفًا معًا.

كان الجو داخل الكنيسة حارًا، وكانت تمتلئ بأصوات هامسة وسكون صاخب، كان في الكنيسة همس وترقُّب، وبعد برهة لم أعد أسمع شيئًا إلا صوت آدم وهو يقول: «أوه هوه، هوه، هوه! هاتي أوين».

أجفلت بعض الشيء عندما بدأ الأرغن في العزف، وأجفلت مرة أخرى عندما انتهت آخر نغمة، وبدأ القسيس في الكلام، أخذ يتكلم ويتكلم عن آدم، إلا أن كلامه في الحقيقة كان يمكن أن ينطبق على أي أحد آخر من الموجودين. فكرت في أن هذا شيء متوقع، فالقسيس قد

جاء إلى تلك الكنيسة منذ سبع سنوات فقط، وعلى الأرجح أنه لم يلتق بآدم قطُّ.

عندما انتهى من الحديث طلب إلينا أن نخفض رءوسنا ونصلي. همست لأمي: «اسمحي لي أن أجلس على الطرف». عبست جدتي وهي تنظر إليَّ، لكنني تجاهلتها.

لم أكن أعرف أأخبرت جدتي القسيس برغبتي في أن أتحدث عن آدم أم لا. كنت مستعدة للقيام والوقوف في مكانه والمبادرة بالكلام لو اضطررت إلى ذلك، لكن عندما انتهت الصلاة نظر القسيس إليَّ وأومأ برأسه، ثم ترك الميكروفون وتنحَّى جانبًا.

لم تقو رجلاي على حملي، وشعرت بأنني آخذ نفسي بصعوبة وأنا أنسل من المقعد لأتسلق الدرج المؤدي إلى المنصة. لم أكن قد فكرت فيما سأقوله، واعتقدت أنه ربما كان ذلك خطأ.

كان الميكروفون مرتفعًا، فأنزلته فأصدر صريرًا، وسمعت بعض الضحكات المكتومة. كنت قد قررت بيني وبين نفسي أن أبحث عن الآنسة هاجرتي في الجمع وأوجه حديثي إليها فجعلتني الضحكات أعثر على نانسي وجانيت وقررت أن أوجِّه كلامي إليهما بدلاً من الآنسة هاجرتي.

بدأت بقولي: «اسمي هاريت أوين وأنا ابنة أخت آدم ميرسر».

ألقيت نظرة سريعة على جدتي. كانت تبدو وكأنها تحبس أنفاسها، اتجهت ثانية بنظري إلى نانسي وجانيت. قلت مرة أخرى: «أنا ابنة أخت آدم ميرسر، وأريدكم أن تعرفوا أن آدم لم يكن مخلوقًا غريبًا».

سمعت صوتًا وكأنما شهق كل فرد في الكنيسة بعمق، ونظرت إلى نانسي وجانيت فرأيتهما تنظران إلى أسفل.

«لكنه أُطْلِقَ عليه مخلوق غريب وأُطلق عليه أسماء أخرى كثيرة. وكان ذلك من الأشياء التي من شأنها أن تجعل من آدم شخصًا استثنائيًا».

بدأت التحدث عن الأشياء الأخرى التي كانت تزعج آدم: الارتباك والضوضاء الشديدة ومخاوف أخرى لا أفهمها، تحكي عن لوس ريكاردو والرقص، وعن بطاقة الدعوة لحفل عيد ميلادي. فكرت في أن أتحدث عن موهبة آدم التي اعتبرتها جدتي من خدع السيرك، ولكنني غيرت رأيي، كانت لآدم أوقات طيبة وأخرى عصيبة، توقفت للحظة ونظرت إلى جدتي ورأيت أنها تبكي في سكون بنفس الطريقة التي بكيت بها وأنا عند بركة البط في الحديقة. كنت أهمُّ بأن أقول شيئًا آخر عن أوقاته العصيبة - كيف أن أوقاته العصيبة كانت مختلفة عن أوقات الناس الآخرين وكيف أنني لن أستطيع أبدًا أن أفهمها جيدًا - ولكن بعدما رأيت دموع جدتي وكيف مدت يدها لتمسك بيد جدي ثم سحبتها لتضعها على حجرها مرة أخرى، الآن بعد أن رأيتها عدلت عن رأيي.

«أعتقد أننا يجب أن نتذكر أن آدم كان من أولئك الذين يستطيعون أن يحركوا جوانب عالمنا». تنحنحت بعد تلك العبارة وقلت: «شكرًا». وأنا أنسل إلى مكاني في المقعد أحسست بأني كبرت، فكرت في جانيت ونانسي وأدركت أنني الآن أستطيع أن أعرض عنهما وأتجاهلهما وفهمت أنني وآدم لسنا متشابهين بالدرجة التي اعتقدتها. تذكرت النظرة المعذبة التي ارتسمت على وجهه يوم حادث الساقية ونظرة السعادة، وأدركت

أن قرار ادم بإنهاء حياته لم يكن سهلاً. كان يتطلب درجة من الشجاعة، ولكنها لم تكن من نمط الشجاعة التي أفضل أن أختارها. جلست بين أمي وأبي وأخذا بيديَّ وابتسما لي. لم تكن هناك دموع، ضغطت على يديهما.

بعد الجنازة كان هناك نوع من الاحتفال في بيت جدتي وجدي، حضر حوالي مائة شخص، وقد جاءوا من الكنيسة مباشرة، وكانوا لا يزالون يرتدون الملابس السوداء. كنت أنا الوحيدة التي تتألق في فستانها الأصفر.

أخذت أتجول في البيت لوهلة وأنا أشرب عصير الليمون وأتناول المشهيات الصغيرة. لو كنت في منزلي الآن لذهبت إلى المطبخ لمساعدة كوكي، لكن الصلة التي بيني وبين إيرمالين لا تسمح لي بذلك. وبعد قليل، شعرت بالحاجة للذهاب إلى دورة المياه، لكنني وجدت تلك التي في الطابق الأول غير شاغرة. وفي أثناء صعودي إلى الطابق الثاني أدركت أنني لم أرَ حجرة آدم من قبل.

لا بد أن أراها.

مشيت بمحاذاة الردهة فمررت بغرفة الضيوف ودورة المياه وحجرة أخرى للضيوف حتى وصلت إلى حجرة كان بابها مُوَارَبًا، ففتحت الباب بعض الشيء، وكان أول ما لاحظته أن الجدران كلها، حتى السقف، كانت مغطاة تمامًا بصفحات من مجلات معظمها كان يمثل صورًا للشمس والقمر والنجوم. مؤكد أنها كانت من مجلة *ناشيونال* چيوجرافيك[1].

(1) مجلة شهيرة

telegram: @mbooks90

بعض الملصقات كانت صور لوسيل بال وديسي أرنيز[1]. خطوت خطوة داخل الحجرة، ثم أطلقت زفرة شديدة، كانت جدتي تجلس على الفراش ورجلاها متشابكتان بحرص وهي تتحسس بأصابعها محتويات صندوق خشبي كانت قد وضعته على ركبتيها. نظرت لأعلى، وقد جفلت مثلي.

«هاتي!».

«جدتي! أنا ... أنا آسفة» وبدأت أتراجع إلى الردهة.

«لقد كنت في طريقي إلى دورة المياه».

«لا بأس» ربتت جدتي برقة على الفراش وقالت: «ادخلي يا هاتي».

كنت أعرف أنني متطفلة ولكن جدتي كانت قد دعتني للدخول. جلست بجانبها على فراش آدم وأنا أتفحص الصندوق.

سألتها: «ما هذا؟».

«ذلك صندوق كنز آدم».

كان بداخله أشياء صغيرة الحجم: صخرة، ريشة زرقاء، قطعة معدنية عليها رأس هندي أحمر، وصور كثيرة.

قالت جدتي: «كانت أمكِ ترسل إليه شيئًا كل أسبوع طوال الأعوام التي قضاها في المدرسة؛ هدايا صغيرة، صور من الممكن أن تعجبه ليعلقها في غرفته، صور لك. وكان آدم يحتفظ بكل شيء ترسله إليه».

سألتها: «هل كانت ترسل له خطابات؟».

---

(1) أبطال مسلسل (أنا أحب لوسي).

أومأت جدتي برأسها قائلة: «وكان آدم يحتفظ بها أيضًا».

تذكرت مرآة أمي والأركان التي ملأتها بالصور، وكدت أسمعها تقول: «إياك أن تسأليني هذا السؤال مرة أخرى».

مددت يدي لأمسك يد جدتي، ووضعت الصندوق جانبًا، ثم جلسنا معًا في غرفة آدم لمدة طويلة.

في اليوم السابق لرحيل خالي هايدن، قررت العائلة أن تزور قبر آدم. أوصلنا شارلز السائق إلى هناك. سرنا في بطء وسكون على الطريق الضيق الذي يخترق المدافن حتى أمر أبي شارلز بالتوقف، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك قداس أثناء الدفن، فقد كان الجميع سواي قد زاروا القبر من قبل. بدا القبر جديدًا مقارنةً بالقبور الأخرى؛ نظرًا لأنه كان أكثر نظافة وترتيبًا. كانت الحشائش قصيرة، ولم تكن الأزهار قد ذبلت بعد.

أعربت لآدم عن أسفي؛ لأنني قلت له إنه طفل رضيع، ثم أضفت: «أتعلم؟ أنا لست غاضبة منك. إنه لا يروقني ما فعلت، ولكني أعتقد أني أفهم لماذا تصرفت هكذا».

اكتشفت أنني لا أستطيع أن أقترب من مشهد قبر آدم، فجلست على العشب عن بعد. كان أبي وأمي يقفان متشابكي الأيدي. أما خالي هايدن فقد وضع ذراعه حول كتف جدتي.

ثم شاهدت جدي وهو يمد يده إلى جدتي، ورأيت دموع جدتي وهي تنهمر في صمت من أجل آدم.

الفصل الثاني والعشرون

وضعت شريط الفيلم في العلبة، ثم استرخيت في المقعد وأنا أستمتع بجو شهر أكتوبر من حولي. منذ حوالي شهرين كان الوقت يمضي ككلبٍ عجوز يزحف في سيره حتى يصل إلى مرحلة لا يستطيع فيها السير أكثر من ذلك فيسقط على مؤخرته على الرصيف، ولا يفعل شيئًا سوى الجلوس هناك.

كيف جاء الخريف فجأة وتقدم بنا الزمن؟ كيف تقدم الزمن وسار إلى الأمام؟

أتذكر كيف رحلت آنجيل في تلك الأيام المعتمة التي تلت موت آدم عن منزلنا، رحلت بسرعة، في يوم من الأيام جهزت حقائبها وملأت صندوقين من الكارتون، أخذتهما من دكان البقالة لتضع بقية متاعها، وكتبت عنوانها الجديد في ورقة وأعطتها لوالديّ، ثم انتظرت هنري ليأتي بسيارته المكشوفة، وخطر ببالي وقتها أن تلك السيارة كانت جزئيًا مسئولة عن وفاة آدم. فأنا لم أرها يوم جاء آدم بزهوره لآنجيل.

فلو كنت رأيتها لما كنت جعلت آدم يصعد لأعلى، لكن هنري لم يكن يُفترض أن يكون مع آنجيل في المقام الأول بما أن ذلك كان ضد التعليمات؛ تلك التي تفسر انقطاع السير في مكان قريب.

استغرقت وقتًا طويلاً لأتخلص من الشعور بأن آنجيل وتصرفاتها كانت السبب وراء موت آدم.

لم أنظر إلى قصاصة الورق التي تركتها آنجيل لأمي وأبي، لكنني أعلم أن آنجيل قد انتقلت إلى مكان ما قريب - ربما مع هنرى- لأنني رأيتها مرتين وهي في طريقها إلى عملها بالبنك، لم أتكلم معها إلى الآن لكنني سأفعل في يوم ما.

يعد الأسبوع الذي تلا عودة خالي هايدن إلى كاليفورنيا بداية وقت عصيب لجدتي وجدي. كنت أعتقد أنهما سيضعان ذكرى آدم وراء ظهريهما وكأن شيئًا لم يكن، وأنهما سيقومان بمحو آدم بنفس السهولة التي استطاعا بها محوه وهو في المدرسة، وعلى هذا فقد توقعت أن يذهب جدي إلى العمل يوم الإثنين مباشرة.

لكنه لم يفعل. اتصلت جدتي بأمي في وقت متأخر من الصباح لتقول لها إن جدي يرتدي ملابس العمل ويجلس في غرفة آدم وهو يحدق إلى الجدران والسقف. لقد قبع هناك منذ انتهائهما من تناول وجبة الإفطار. هرع أبي وأمي إلى منزل جدتي وجدي، لكنهما لم يستطيعا فعل شيء. بعد وقت أغلق جدي باب غرفة آدم وجهز لنفسه كأس مارتيني وشربها بمفرده في الحديقة الخلفية.

أخذ جدي يكرر ذلك كل يوم من أيام ذلك الأسبوع إلى أن نفد صبر جدتي وقررت أنه قد حان ميعاد تنظيف غرفة آدم وخاصة إزالة كل

الملصقات من الجدران والسقف. ومن المحتمل أن يضطرا إلى إعادة طلاء الغرفة عندما يفعلان ذلك.

لم يُجِب جدي عليها، ولكنه عاد إلى مكتبه يوم الإثنين وتوقف عن شرب المارتيني في الحديقة إلى أن يتجاوز الوقت الساعة الخامسة مساءً.

سعدت جدتي في اليوم الذي عاد فيه جدي إلى العمل واتصلت بنا لتخبرنا بالنبأ السعيد، ثم سألتني إن كنت أستطيع المجيء لمساعدتها في تنظيف حجرة آدم. تساءلت: لماذا لم تطلب جدتي إلى إحدى الخادمات مساعدتها في ذلك؟ ثم فكرت في أنها لا تريد لأحد من خارج العائلة أن يرى متعلقات آدم. بعد ذلك بساعة كنت في حجرة آدم مرة أخرى مع جدتي.

قلت: «أعتقد أننا من الأفضل أن نبدأ بالجدران، فسنحتاج إلى سلم لإزالة الصور من السقف». مددت يدي إلى صورة من صور لوسي ريكاردو؛ كانت تنظر إلى ريكي وهو يخطو عبر باب شقتهم إلى الداخل. وكان بوسع المرء أن يفهم من تعبير وجهها أنها فعلت شيئًا لا تريد كشفه. جعلتني الصورة أبتسم، وفهمت لماذا كان آدم يحب لوسي؛ فهي ليست مثالية بأي حال من الأحوال.

جذبت طرف الصورة فتمزقت، فصاحت جدتي قائلة: «لا، لا تلمسي تلك الصورة».

«لكني ظننت...».

«لا بأس. اذهبي إلى المنزل يا هاتي».

وفعلت ذلك. استغرق الأمر من جدتي شهرًا آخر لتقرر ما إذا كان في الإمكان المساس بحجرة آدم. وبعد كل ذلك طلبت منا أن تأتي توبي دي أنجلي لتنظفها، ثم استأجرت شركة ناسو للديكور الداخلي لإعادة فرش

الحجرة، وبحلول شهر أكتوبر لم يعد هناك أي أثر لآدم في المنزل، ولكن عند ذكر اسم آدم كانت جدتي تنفجر في البكاء، وكان جدي يمد يده ليتناول زجاجة الفرموث.

في شهر أغسطس وبعد ثلاثة أيام من عودة جدي إلى العمل أعلن والدي أننا سنقوم برحلة عائلية. كنت مذهولة وسألت: «كيف نفعل ذلك؟ إننا لم نتخطَّ حدود الولاية قطُّ».

قالت أمي بحزم: «ستمسك كوكي بزمام الأمور. سيكون الجميع في أحسن حال».

وذهبنا إلى شاطئ أفالون في نيوجيرسي لمدة ثلاثة أيام. أستأجرنا كوخًا صغيرًا، كان واحدًا من صفٍّ يتكون من أربعة أكواخ قريبة من الشاطئ، وقضينا الأيام نأكل الكابوريا المقلية ونستلقي في الشمس. كان كل منا في حاجة إلى الانفراد بوقته. كان أبي يتركني أنا وأمي في الصباح الباكر ليتناول إفطاره في محل هوي. أما أمي فعثرت على دار عرض للسينما وذهبت إلى نفس الفيلم ثلاثة أيام متتالية، أما أنا فأعطوني نقودًا لاستئجار درَّاجة وأخذت أسير بها في كل أنحاء البلدة، لمجرد الدوران بها بلا هدف، لكنا كنا أيضًا نلعب الجولف المصغر. وكل ليلة كنا نتناول العشاء في نفس المطعم معًا. وعندما ننتهي من العشاء كنا نسير على الشاطئ في الظلام ونحن متشابكو الأيدي وننظر إلى النجوم. في الليلة الأولى قلت ونحن نجلس على الرمال الرطبة: «ليصرح كل منا بشيء يريد أن يتذكر به آدم».

انفجرت أمي في البكاء، ثم رحت أبكي، وبعد وقت لاحظت أن أبي أيضًا يبكي.

لم نتكلم عن آدم في تلك الليلة، إلا أن أمي قالت في الليلة التالية: «لقد كان آدم شجاعًا» وقال أبي: «آدم كان يستطيع أن ينفذ إلى روحك»، وقلت أنا: «آدم كان مختلفًا». ونظر إليَّ والداي من دون أن يسألاني ماذا أعني.

في الليلة الثالثة في آخر ليلة لنا في أڤالون، قلت ونحن ننظر إلى النجوم: «الليلة سنفكر في شيء تعلمناه من آدم».

قالت أمي في بطء: «علمني آدم أننا يجب أن نكرس وقتًا للاستمتاع بالحياة، وأنه لا مشكلة في كسر الروتين؛ ولهذا نحن هنا الآن».

هنا في هذا المكان المتواضع الذي أرجح أنه لن يحظى بمباركة جدتي.

قال أبي: «وأنا كذلك علمني نفس الشيء».

قلت: «علمني آدم أهمية أن نتكلم عما بداخلنا».

عم الصمت، هيا، هيا، اسألوني عما قصدته عندما قلت إن آدم مختلف. وإن يكن لي أخوال آخرون لا أعرف عنهم شيئًا فأرجوكما أن تخبراني عنهم الآن».

لكن أمي قالت: «حسنًا»، وقال أبي: «سنحاول» وكان ذلك أقصى ما أتمناه.

رجعنا إلى ميلرتون في نهاية أغسطس، وفي أحد أيام الظهيرة جاءت السيدة ستروسكي من رحلة بحثها عن عمل وهي سعيدة جدًا.

قالت: «سوف أكون مديرة المبيعات في قسم الأطفال بمتجر بامبيرجز.. تخيلوا أنا مديرة!».

كانت مفعمة بالمرح والابتسامات، وفي تلك الليلة خرجت مع كاثرين وسام لتناول العشاء في مطعم رنويك وأكلوا همبورجر عند منضدة الصودا.

بعد ذلك بأسبوع، انتقلوا إلى البيت الصغير الذي استأجرته لهم السيدة ستروسكي. لدى رحيلهم تعانقنا أنا وكاثرين وأعطتني رقم هاتفهم الجديد، ثم قالت: «مري علينا غدًا، عندي غرفة خاصة بي في البيت الجديد وأريدك أن تساعديني في ترتيبها».

وفعلت ذلك.

قبل عيد العمال بوقت قصير رجعت بتسي إلى منزلها، وعرفتها بكاثرين التي أخبرتها عنها في رسائلي إليها، وبسرعة كونا معًا شلة من ثلاث صديقات. بدأت المدرسة وأصبحنا أنا وكاثرين وبتسي في نفس الفصل. كانت نانسي وجانيت في فصلنا أيضًا، ولكني لم أهتم بهما، فليستا جزءًا من عالمي.

telegram: @mbooks99

لم يكلفونا بواجب منزلي في أول يوم من الدراسة، وفي هذه الليلة كتبت رسالة إلى ليلا، وكانت تلك فكرة كاثرين، قالت لي: «اكتبي على الظرف «ليلا كان»، كرنڤال فريد كارميل، بيثاسدا. يمكن أن يصل إليها».

أجبت: «لكن الكرنڤال لن يكون في بيثاسدا، وسيكون في أي مكان حولها».

سألت بتسي التي كانت تستمع إلى حديثنا: «كم كرنڤالاً لفريد كارمل يمكن أن يكون موجودًا عند بيثاسدا؟».

كانت على حق.

وعلى ذلك، فقد كتبت خطابًا إلى ليلا لأشرح لها ما حدث وأحكي لها عن آدم وآنجيل ڤالنتين وعن الجنازات ونانسي وجانيت، وقلت لها إنها نعم الصديقة، ووجهت الخطاب إلى «ليلا كان»، بعناية كرنڤال فريد كارميل

للمرح بيثاسدا، ميريلاند. وضعت عنواني على الجانب العلوي للظرف ولم تُرد إليَّ الرسالة فربما وصلت إلى ليلا أو أنها ستصل إلى الكرنفال بطريقة ما.

فتحت الأنوار وأغمضت عيني للحظة. سيأتي أبي وأمي إلى البيت قريبًا. وضعت الشريط في المكان المخصص له في الصندوق المعدني وأغلقت الغطاء، فأصدر رنينًا خفيفًا خارج الغطاء، كانت هناك قائمة بأسماء الشرائط الموجودة في الصندوق. تفحصت القائمة التي لم أرها من قبل - بما أنها المرة الأولى التي أكون فيها مسئولة بالكامل عن آلة عرض الأفلام، ولاحظت أن آخر فقرة في القائمة كان عنوانها ميرسر.

ميرسر، جدتي وجدي وأمي وخالي هايدن وآدم. ليس هناك أوين، أي أنا وأبي.

فتحت الصندوق مرة أخرى، ووجدت الشريط المسمى بميرسر. وضعت الفيلم في آلة العرض وأطفأت الأنوار وجلست في المقعد وأنا أحبس أنفاسي. كانت الصورة التي تومض أمامي قديمة وباهتة لكنها ليست بالقدم الذي توقعته، ظهرت فتاة ترتدي قلنسوة وروب التخرج أمام الكاميرا وأخذت تبتسم وتلوح. أمي، إنني أتذكر الصورة في الألبوم. أمي وهي تتخرج في المدرسة الثانوية. تُرى، هل هذا هو يوم التخرج نفسه؟ ثم يظهر خالي هايدن وراءها في بذلته المهندمة ويبدو جادًا جدًا كالكبار. كان يشبه جدي إلى حد كبير، ثم أدركت أنه لا بد أن يكون ذلك حفل تخرج أمي في الجامعة. ابتسمت. كان ذلك في ماونت هولبون إذن، وكان في جنوب هادلي، ماساتشوستس وكان عام 1943.

ولابد أن آدم وقتها كان في الخامسة من عمره. ثم فجأة، ظهر في الصورة. كان يرتدي بذلة وربطة عنق والنظارة المستديرة، وجرى ناحية أمي ورمى بذراعيه حول خصرها، خلعت أمي القلنسوة من على رأسها ووضعتها على رأس آدم ونظر آدم إلى الكاميرا بعينين بهما حَوَلٌ وأخرج لسانه، ثم أخذ يرقص رقصة طفولية، وخلع القلنسوة وأعطاها لأمي.

كنت أبتسم والدموع تنساب على وجهي، ولم أستطع أن أشاهد المزيد. لم أكن أعرف كيفية إيقاف الفيلم قبل أن ينتهي؛ ولذلك تركته يدور في سكون في حجرة المعيشة، وجلست أنا في المطبخ.

أخذت ألتقط بقايا الفيشار، ورحت أفكر في ذلك الصيف الذي كان بديعًا ومريعًا في آنٍ واحد. شكرت آدم كما شكرته كل ليلة منذ أغسطس الماضي، شكرته لأنه وضح لي كيفية أنه من الممكن تحريك أركان الكون الذي نسكنه. أخبرني آدم عن إمكانية رفع أركان الكون عندما قابلته في المرة الثانية، لكن لم تكن لديَّ فكرة عن مغزى ما يقوله. الآن أعتقد أنني أدرك أن للأمر علاقة بتغيير ما أُعطِي لك، ببعض المناورة عن طريق الجوانب وربط ما بأسفلها وتحريكه. في بعض الأحيان تسير الأمور، وفي أحيان أخرى لا تسير، ولكنك على الأقل تستكشف. والحياة دائمًا أكثر إمتاعًا بهذه الطريقة.

telegram: @mbooks90

مكان صغير في الكون

telegram: @mbooks90

تفضل هاتي أوين أن تغوص في حياة مدينتها الصغيرة على أن تفكر في العالم الواسع البعيد. فمنزل عائلتها الذي تؤجر فيه بعض الغرف هو المكان الذي تشعر فيه بالراحة، حيث تعيش مع المستأجرين الغرباء والروتين اليومي المتوقع – وهذا المنزل يختلف تمامًا عن منزل جدَّيها المجاور المليء بالتحكمات والتحفظات.

لكن خلال فصل الصيف الذي أتمت فيه هاتي الثانية عشرة، انقلب عالمها رأسًا على عقب بعد الوصول المفاجئ لخال لم يتكلم عنه أحد من قبل.

والآن، نظرًا لأن مدرسة آدم – مؤسسة لرعاية ذوي الاحتياجات الخاصة- ستغلق، ويجب أن تتعامل عائلة هاتي مع الشاب الصغير الذي يتصرف مثل الأطفال والذي أنكروا وجوده لسنوات، تمر هاتي بصيف يزيد من اتساع عالمها بطرق أبعد من أن تخطر لها على بال.

تحكي آن إم. مارتن بعاطفة قوية قصة صداقة معقدة ومقدرة سيتأثر القراء بمجرياتها بشدة.

نهضة مصر
www.nahdetmisr.com